

مركز البحوث والدراسات

فقه الوفاق

إعداد
مركز البحوث والدراسات

www.albayan.co.uk

فقه الوفاق

إعداد
مركز البحوث والدراسات

ح مجلة البيان، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز البحوث والدراسات بمجلة البيان

فقه الوفاق./ مركز البحوث والدراسات بمجلة البيان، - الرياض، ١٤٣٥هـ

ص ١٢٢؛ ١٧× ٢١ سم

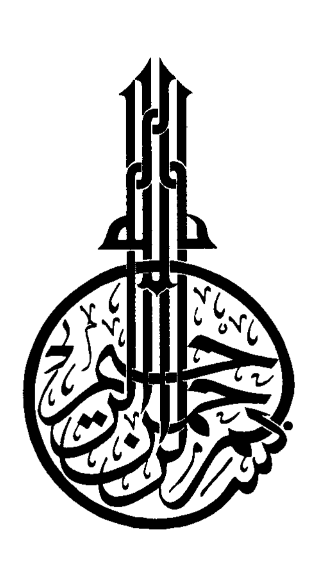
ردمك: ٠-٤٩-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨

١ - الوحدة الاسلامية ٢- الاسلام والمجتمع أ. العنوان

ديوي ٢١٩،٣ ١٤٣٥/٢٨٧٤

رقم الإيداع: ٢٨٧٤/ ١٤٣٥

ردمك: ٠-٤٩-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨







المقدمة

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فقد طافت رياح الثورات على كثير من الشعوب العربية مع مطلع العقد الثاني من الألفية الثالثة، ولاحت معها آمال كبار في أن تتجاوز تلك الشعوب ما كان أقحم عليها من مقدمات إفساد منظم؛ أثمرت نتاج فساد بين الشعوب، كان أبرزها في الجانب الأخلاقي جفاف في العلاقات وجفاء في التعامل، كان يتحول في كثير من الأحيان إلى اختلاف وشقاق يحرص الطغاة على تجذيره وتكبيره، وقد تعاظم الأمل بعد الثورات في رتق الفتوق ورقع الخروق بعدما شهدت فعاليات الثورات التحاماً بين جموع الجماهير متنوعة المشارب والاتجاهات على مطالب متشابهة من العدالة والحريات، متعاهدين على المضي في مواجهة المؤامرات والتحديات التي كان متوقعاً وقوعها ضمن احتمالات الثورات المضادة، لكن تلك الثورات المضادة التي جمعت فلول الاستبداد مع أباطرة الفساد وأصحاب المصالح الآنية الأنانية؛ نجحت في توجيه دفعة حولت الدفة إلى غير وجهتها، حيث جرى اختلاق اختلاف وشقاق جديد بين الناس، ولكن على نحو أعمق وأخطر مما كان بأضعاف كثيرة... وتفنن أعداء الشعوب الثائرة في الداخل والخارج في تحزيب الناس بعضهم في وجه بعض، وتخريب علاقاتهم وصلاتهم ببعض، بما يصعب

معه إقناع طرف بمجرد الاستماع أو التفهم لكلام الطرف الآخر، فضلاً عن أن تعود العلاقات بينهما إلى سابق عهدها قبل التحزب والتعصب.

ودخلت على خط التحريش بين الناس أطراف أجنبية، أدارت معارك تصفية حسابات على أرض المختلفين المتنازعين، وانفتحت شهية أصحاب المشروعات «و الأهداف» الخاصة من الطائفيين والطامعين الطامحين في المكاسب والمغانم، ولاحت الفرص لأصحاب مشروعات التفتيت القديمة والجديدة، لاهتبال فرص انقسام القلوب والنفوس لأجل تقسيم الثروات والمقدرات، وأضحت الثورات التي كانت نوافذ تطل على دوحة الوحدة؛ أبواباً شبه مؤصدة أمام محاولات توحيد الأمة الواحدة!

الإسلاميون بما أنهم اختاروا أن يكونوا في صدارة المشهد بعد الثورات، بعد أن اختارهم الناس لذلك؛ كانوا في واجهة التحدي وبؤرة التصدي لرياح الاختلاف ورماحها، حيث توجهت كل السهام إلى نحورهم على اختلاف توجهاتهم، مرة بالمكر والخداع، وتارة بالفتك والتنكيل، وأخرى بالترهيب أو الترغيب (تنوعت السهام والفريسة واحدة). وأثمرت جهود الإفساد حالة فساد بين غير مسبوقة، وأصبح إجماع الأعداء على استهداف الإسلاميين في بلاد الثورات وغيرها أمراً محيراً، وأصبح انحياز العلمانيين إلى جانب النصارى الصليبيين، وانسجام النصارى مع اليهود المعتدين، وتلاقي اليهود مع الملحدين، واتفاق أهل النفاق مع كل هؤلاء على ضرب الإسلام وإذلال المسلمين من المحن الدهماء، والفتن التي تدع الحليم حيران، فحتى الدعوات السلمية، والجهود الخيرية، والمقاومات المشروعة للاحتلال في مثل سورية وفلسطين والعراق وأفغانستان؛ أصبح كل ذلك محرَّماً مجرَّماً، ومعارضاً مطارداً!

إنه إجماع غير مسبوق للاعتداء على الأمة، فقد كان الأعداء يتناوبون ذلك الاعتداء على بعض الأطراف ولكنهم يَدَعون بعضها، ويصادمون بلداً ويصالحون آخر، أما اليوم فهم مجمعون ومجتمعون على الحرب والضرب في كل حدب وصوب ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

لكن دهشتنا وحيرتنا، وانزعاجنا واستغرابنا من ذلك (الإجماع والاتفاق) من الأعداء لا يدانيه في الدهشة والانزعاج، والحيرة والاستغراب، إلا ما يقابله مما أصبح يشبه (الإجماع) -من هؤلاء المستهدَفين- على عدم الاجتماع، ومن شِبه الاتفاق منهم على عدم الاتفاق، سواء كان في المنحى السياسي، أو المسلك الجهادي، لا نقصد على مستوى الزعامات والقيادات فقط؛ فذلك أمر قد كادت تعم به البلوى، ولكن على مستوى القواعد العريضة والبنى التحتية لهؤلاء الإسلاميين المستهدَفين.

انظر حولك في بعض الساحات الساخنة ترَ عجباً: جهوداً مبعثرة، وإمكانيات مهدرة، مع صفوف متناثرة، وقلوب متناكرة!.. ما هذا يا أمة الإسلام؟!

أفي مثل ذلك الليل البهيم يظل بعضنا يسهر على التخاصم والتنافر، وينام على التنازع والتدابر؟!

أين الصف المرصوص، أين قلب الرجل الواحد، وتداعي الجسد الواحد، وخفض الجناح ولين الجانب، والتآخي والتصافي والتراحم والتواد ؟!

حقاً لقد صنع الشقاق والجفاء منا غثاء، حتى تعاوت علينا كلاب الأرض،

وتعاونت علينا ذئابها، وصدق فينا قول الرسول ﷺ : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أوَ مِنْ قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال: لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»[1]، نعم نحن كثير كثير.... ولكن الشقاق والجفاء يحوِّل المتنازعين منا إلى غثاء.

لقد وُفق الإسلاميون فيما مضى من عقود في تجاوز عقبات كثيرة في أثناء مسيرتهم، فأحرزوا إنجازات، وانتزعوا نجاحات، واختطوا طريقهم في أحيان كثيرة وسط كثير من العراقيل والعقابيل بتوفيق وسداد، ولكن تقصيراً -بل تفريطاً- وقع منهم في جانب بناء الصف المرصوص والبنيان المتين، فصاروا اليوم يعانون ما كانوا فيه مقصرين ومخطئين، يجب أن نعترف أنهم أخفقوا... نعم أخفقوا؛ في تأمين الحد المطلوب من وحدة الأمة، بتقصيرهم في بذل الحد المشروع من التكاليف الشرعية لوحدة هذه الأمة، لا على مستوى العامة فقط، بل على المستوى الخاص أيضاً مستوى النخب العاملة والصفوة النشطة.

إننا نزعم أن قسماً كبيراً من الشريعة التي تنادى الإسلاميون بتطبيقها وإقامة أحكامها؛ يقومون هم - إلا من رحم الله - بتجافيه والإهمال فيه، وهو ذلك القسم الذي يشمل الأحكام والهدايات والآداب والسلوكيات التي تتضمن تأليف القلوب بعد الفرقة وتوحيد الصفوف بعد بُعْد الشقة؛ فوحدة هذه الأمة منهجياً وقلبياً، هو في الأساس مطلب من مطالب الشريعة كبير، ومقصد من مقاصدها عظيم. ولا ندري؛

(١) أخرجه: أحمد من حديث ثوبان رضي الله عنه؛ وأبو داود وقال الشيخ الألباني: صحيح بمجموع طرقه (السلسلة الصحيحة رقم ٩٥٨).

كيف ضمر في مناهج أكثر التجمعات الإسلامية -إن لم يكن في كلها- ذلك الجانب النظري الذي يراعي تحقيق ذلك المقصد في الواقع العملي ؟! صحيح أنه كانت هناك دائماً مساحة للكلام عن (الوحدة الإسلامية) من الناحية النظرية، ولكنها من الناحية العملية كانت توظف في الغالب لصالح الوحدة الحزبية أو الفكرية أو التنظيمية، ولن ندلل على ذلك بأكثر من شهادة الواقع على ذلك، مما يعرف الجميع تفاصيله.

وقوع الاختلاف السلوكي، أوحتى المنهجي بحد ذاته؛ ليس هو الهم الأكبر، ولكن الأخطر من ذلك هو الاستسلام له نظرياً حتى تظهر آثاره عملياً، حيث يمكن أن تتحول الملاحاة في الكلمات إلى لكمات، وتتطور الملاسنات إلى مشاحنات ثم اشتباكات...!!

لا تعجل فتظهر العجب من احتمالات وقوع ذلك، فقد صارت فصول وفصول من جنس ذلك في ساحات لم تنضج فيها ثقافة الاتفاق أو فقه الوفاق، أو روح التواصل والتلاق.

لقد وضعت مجلة البيان من أهدافها الرئيسة منذ تأسيسها: السعي في وحدة الكلمة والتأليف بين الدعاة والمصلحين والتجمعات الدعوية قدر طاقتها، وفي هذا الكتاب جهد مكتوب على طريق سعي دؤوب مطلوب لاستنقاذ فصائل الأمة من طواحين الأزمة الناشئة عن فساد البين بين بعضها، في محاولة لردِّ الجميع إلى المرد الأرشد، والمرجع الأوحد عند التخالف أو الاشتجار، وهو الاستعصام بالله والرد إلى رسول الله ﷺ بعد الإنابة والاستغفار ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٤، ٦٥].

ويحتوي هذا الكتاب على خمس ورقات:

الورقة الأولى:

فقه الوفاق .. متى نحييه؟ كتبها الدكتور عبدالعزيز مصطفى كامل.

الورقة الثانية:

وحدة الصف ضرورة، كتبها الدكتور محمد بن عبدالله الدويش.

الورقة الثالثة:

معالم في طريق الوفاق، كتبها أحمد بن عبدالرحمن الصويان.

الورقة الرابعة:

التعاون مع أهل القبلة: الشروط والمحاذير، كتبها الدكتور عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف.

الورقة الخامسة:

حدود التعاون المشروع بين الأطياف أو الأحزاب المختلفة داخل البلد الواحد، كتبها الدكتور هشام بن محمد برغش.

نسأل الله -تعالى- أن يوحِّد صفوفنا على الطاعة، ويجمع قلوبنا على السنة.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

مركز البحوث والدراسات

فقه الوفاق.. متى نحييه؟

د. عبدالعزيز بن مصطفى كامل



□ الإصلاح بالوحي:

وحي الله هو ما تنزل به جبريل عليه السلام من كلام رب العزة -سبحانه- على قلب الرسول ﷺ وعلى أفئدة الرسل قبله، وقد كان الوحي إلى الرسول قرآناً يسمعه ويعيه ثم يتمثله ويبلغه، ومعه سنة يتعلمها فيُعلمها، ويهتدي بها ثم يهدي إليها، وقد بعث الله رسوله ﷺ منذراً بالوحي ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وأرسل الرسل قبله هادين له وداعين به إلى كل خير ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]. وجعل الصلاح والهداية بأنواعها مربوطة بالوحي ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: ٥٠] فأي إصلاح في شأن من شؤون الأمة يتجافى الوحي وهداياته؛ لايستحق أن يسمى إصلاحاً، فالإصلاح بالوحي كان على مر التاريخ مدار التكليف، على مستوى الآحاد والجماعات والشعوب والأمم، وقد جمع القرآن ما تفرق من الوحي في الكتب المتقدمة ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر: ٣١] فكل باحث عن الهدى والصلاح في أي شأن من الشئون؛ لا أدل له عليه إلا في هذا الوحي كتاباً وسنة ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

النازلة العظمى التي نزلت بين المسلمين بفرقة في القلوب، ونفرة بين النفوس في السنوات القليلة الماضية؛ لا منازلة لها إلا بالتنزيل الموحى به، في منطوق آية محكمة أو نص حديث صحيح، مع فهم سديد من راسخين في العلم، راشدين في السلوك.

والنازلة العظمى التي نزلت بين المسلمين بفرقة في القلوب، ونفرة بين النفوس في السنوات القليلة الماضية؛ لا منازلة لها إلا بالتنزيل الموحى

به، في منطوق آية محكمة أو نص حديث صحيح، مع فهم سديد من راسخين في العلم، راشدين في السلوك.

وفيما يلي وقفات في محطات من بعض نصوص الوحي -كتاباً وسنة- في شأن الإصلاح بين المسلمين، نستروح بها عبير الوفاق وعبق الائتلاف والاتفاق، ممتلئين أملاً بعلاجها لمواطن الألم الذي تخلفه الخلافات في النفوس، وتخلقه المنازعات في القلوب:

- ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]: انتصارنا في اعتصامنا، هذه سنة كونية قدرية، نحن نؤمن بالقدر لكننا لا نؤمن «بالقدرية» البدعية، فبدعة القدرية (العقدية) بنوعيها[١]، إحداث في الدين، وشذوذ في الاعتقاد، عافى الله تعالى منه أهل السنة والجماعة، ولكن نوعاً جديداً من القدرية (الفكرية) بدأ ينتشر بين المسلمين، يشيع بينهم نوعاً من الهزيمة، ولوناً من السلبية، تقعدهم عن العمل بتكاليف الشريعة ومحكمات الأحكام احتجاجاً بالقدر؛ وذلك في صنوف من الأقاويل، منها مثلاً: أن هزيمة أعداء الأمة والتمكين للإسلام لن يكون إلا في زمان المهدي، ومنها: أن انتصارنا على اليهود لن يكون إلا في زمن الدجال..! ومنها -وهو المقصود هنا-: أن وحدة الأمة لن تتحقق أبداً؛ لأن القدر محتوم بدوام الافتراق؛ فلهذا فإن من العبث كما يقولون

---

(١) القدرية الاعتقادية تمثلها فرقتان؛ فهناك القدرية المغالون في إثبات القدر، القائلون بأن الإنسان مجبر على أفعاله (مسيَّر) وهم أتباع الجهم بن صفوان، ويعرفون أيضاً بالجبرية، وهناك القدرية النافون للقدر، القائلون بأن الإنسان يستقل بعمله في الإرادة والقدرة، وهذه القدرية هي التي دعا إليها معبد الجهني وغيلان الدمشقي.

السعي في الوفاق والاتفاق، بل إن بعضهم تنطع وعدَّ الدعوة بجمع كلمة المسلمين من التعدي في الدعاء؛ لأن ذلك يتعارض مع القدر المعلوم باستحالة هذا الجمع !! ولو أنصف هؤلاء من أنفسهم، لعلموا أن الاعتصام بحبل الله حكم شرعي للتنفيذ لا حكم قدري للتعجيز أو التكليف بما لا يطاق؛ فاجتماع قلوب المسلمين على العمل بالدين هو الدين، وتفرقهم وتنازعهم وفرقتهم بمزاعم قدرية أو حزبية أو مصلحية هو هدم لأهم عوامل التمكين.

ألم يأمر الله تعالى بالاجتماع في قوله سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[آل عمران: ١٠٣]؟ إن هذه الآية أصل في الإصلاح أصيل، ومبدأ في فقه الوفاق متين، وقاعدة من قواعد العلاقات بين المسلمين، ولو كان الاجتماع والوفاق مستحيلاً قدراً؛ لما جاء الأمر به شرعاً. قال الإمام الطبري -رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية: «يعني بذلك جل ثناؤه: وتعلقوا بأسباب الله جميعاً، يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهد إليكم في كتابه إليكم من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله» [1]، ولو كان ذلك الاجتماع غير مقدور لما فُسرت الآية بذلك.

وقال المفسر ابن عاشور -رحمه الله- عند كلامه على هذه الآية: «هذه الآية أصل عظيم من أصول الأخلاق الإسلامية»، وعلل ذلك بأنها تشتمل في أولها على النهي عن الموت على غير الإسلام، بما يستوجب النهي عن مفارقة الإسلام طول الحياة، وأنها تشتمل كذلك على

---

(١) تفسير الطبري للآية: ١٠٣ من سورة آل عمران، طبعة دار الحديث بالقاهرة (٣/ ٢١).

الأمر الشرعي بالاعتصام وعدم التفرق بما يستوجب الأخذ بأسباب ذلك، وقال -رحمه الله: «أمرهم بما فيه صلاح حالهم في دنياهم، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق ليكتسبوا باتحادهم قوة ونماءً»[1]، فأين هذا من قول من يقول: إن الفرقة قدر غالب، وضربة لازب ؟! إن الأمر بالاجتماع هو أمر بمسبباته من الأوامر الشرعية، كما أن النهي عن الفُرقة هو نهي عن مسبباتها من المناهي الشرعية، ولذلك قال العلامة أبو السعود في تفسير الآية نفسها: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]: «لا تُحدِثوا ما يوجب التفرق ويزيل الألفة»[2].

وما يوجب التفرق ويزيل الألفة، نعرفه جميعاً في كثير من المجالس والمنتديات، وفي أكثر المجادلات والحوارات الخالية من أدب الحوار الإسلامي، وإذا كان بذل الأسباب لتقوية أواصر الأخوة بين المسلمين واجباً شرعياً؛ فإن مع ذلك الواجب واجباً آخر أوجب، وهو أن يكون هذا الإخاء مبنياً على الالتفاف حول ثوابت هذا الدين ومحكماته.

والدعوة إلى وحدة العمل الإسلامي هنا ليست دعوة إلى تأليف القلوب على مفهوم مقلوب، أو منهج مبتدع، أو اعوجاج ظاهر عن الأصول الثابتة؛ ولكنها دعوة إلى التآلف على الهدى المحكم، والثوابت المجمع عليها[3]؛ وهذه مساحتها أكبر بكثير من مساحة المسائل المختلف فيها.

وأكثر ما تعج به الساحة الإسلامية من خلافات واختلافات، إنما هو في مسائل قد تختلف فيها الأنظار ويسوغ فيها الاختلاف.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، (٣/ ٣٠، ٣١).
(٢) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، للعلامة أبي السعود (١/ ٥٢٦).
(٣) من أحسن ما ألف في ذلك كتاب الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي، للدكتور صلاح الصاوي.

لوحدة الجماعة المسلمة كما يقول سيد قطب -رحمه الله- «ركيزتان تقوم عليها لتحقق وجودها وتؤدي دورها:

الركيزة الأولى: هي الإيمان والتقوى المأمور بها في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

والركيزة الثانية: هي ركيزة الأخوة.. الأخوة في الله على منهج الله، لتحقيق منهج الله؛ فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام، من الركيزة الأولى.. أساسها الاعتصام بحبل الله، أي عهده ونهجه ودينه، وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، ولا على أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر»[(١)].

وقد يقول قائل: وهل حققت التجمعات الإسلامية في العالم الركيزة الأولى حتى تنتقل إلى الركيزة الثانية ؟ والجواب: إن الفصائل التي ندعو إلى التوافق القلبي والتوفيق المنهجي بينها؛ هي تلك التي لم تخرج عن (الجماعة) بالمعنى الشرعي، أي التي لم تخالف الأصول العامة لأهل السنة والجماعة، وهذا حال أكثر الفصائل المشهورة والمعنية بالكلام هنا فيما نعلم، فهؤلاء وحدتهم المنهجية متقاربة، ولكنهم فرطوا كثيراً في وحدتهم الأخوية الوجدانية.

إن الفصائل التي ندعو إلى التوافق القلبي والتوفيق المنهجي بينها؛ هي تلك التي لم تخرج عن (الجماعة) بالمعنى الشرعي، أي التي لم تخالف الأصول العامة لأهل السنة والجماعة، وهذا حال أكثر الفصائل المشهورة والمعنية بالكلام هنا فيما نعلم، فهؤلاء وحدتهم المنهجية متقاربة، ولكنهم فرطوا كثيراً في وحدتهم الأخوية الوجدانية.

أما الزاعمون بأن اجتماع الكلمة ووحدة القلوب من الممنوع قدراً،

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ٤٣٦).

بناء على أحاديث الافتراق، وتفرد الطائفة الناجية؛ فنقول لهم: حديثنا هو عن اجتماع فصائل العاملين من تلك الطائفة، وليس عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً من الطوائف البدعية المخالفة في أصول الاعتقاد؛ فلهؤلاء شأن آخر، ثم إنه لا يمكننا أن نضرب الشرع بالقدر، للهروب من الشرع احتجاجاً بالقدر؛ فهل إذا أخبر النبي ﷺ بوقوع هذه الأمة قدراً في التشبه بأعدائها في قوله: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه وراءهم»[1] هل يعني ذلك أننا غير مأمورين شرعاً بترك هذا التشبه؟! وهل يعني تقدير وقوع الفتن ألاَّ يفر المرء من الفتن؟ أو أن تقدير غربة الدين يعفينا من العمل على إزالة تلك الغربة عن الدين؟

إن وحدة الصف بين المسلمين فريضة توصل إليها فرائض، وشرعة تتضمن العديد من التشريعات؛ فالأمر بالأخوة الإيمانية هو أمر بالعديد من شعب الإيمان الموصلة لها، هو أمر بخفض الجناح، وحسن الظن، والعفو والصفح، وصنائع المعروف، وإبداء النصيحة، وقبول النصيحة، والرفق في النصيحة، والإخلاص في النصيحة، والستر على العيوب، والرفق في الأفعال واللين في الأقوال، والدفع بالتي هي أحسن، والصبر على التي هي أقوم من مواقف العدل وسياسة الإحسان، إلى غير ذلك من العديد والعديد من شعب الإيمان.

نكاد نجزم بأن أكثر شعب الإيمان توصلنا إلى الاعتصام بحبل الله، وكيف لا؛ ورسول الله ﷺ قد جعلها أهم روابط الإيمان في قوله عليه الصلاة والسلام: «أوثق عرى

---

(١) أخرجه: البخاري في الاعتصام، رقم (٦٧٧٥).

الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»[1]؟

ونكاد نجزم - في الوقت نفسه - بأن الشقاق لا يحصل إلا بعد الوقوع في العديد من شعب العصيان التي يزينها الشيطان ليوقع المسلمين في الافتراق والشقاق.

- ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] آية نرددها كثيراً للتنادي بأهمية الحوار، حتى نادى بعضنا بضرورة الحوار مع (الآخر) يعني الكفار والحوار مع (الآخر) من المارقين والعلمانيين الفجار، وقد سمعنا كثيراً عن حوارات (التقارب بين الأديان) و (الحوارالإسلامي المسيحي) وحوارات (التقارب بين السنة والشيعة) والحوارات بين الإسلاميين والقوميين والليبراليين، ولكن: أين حوار الإسلاميين مع الإسلاميين؟ حوار السُّنة مع السُّنة؟ حوارات جماعاتها مع جماعاتها، وقياداتها مع قياداتها، ودعاتها مع دعاتها؟ أم أن الحوار مع (الأخ) مؤخر دائماً حتى ينتهي الحوار مع (الآخر) ؟!

- ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] من الهدي القرآني العالي، وأولى الناس بهذا الحسن في القول هم أهل الإيمان، ولكن بعضنا يتحسس في الكلام كثيراً ويتدسس في الأسلوب غالباً، ويهادن أو يداهن في العبارة أحياناً إذا كان الكلام مع (الآخر)، ولو كان هذا الآخر منافقاً معلوم النفاق، أو فاجراً يكرمه الناس مخافة شره، أو كافراً لا حرمة له ولا ذمة، خوفاً على شعوره (الرقيق) أن يخدش،

(١) أخرجه: الإمام أحمد في مسنده، رقم (١٧٧٩٣)، وقال الألباني: قوي بطرقه وحسن بشواهده، انظر: السلسلة الصحيحة، (٩٩٨، ١٧٢٨).

وحسه (المرهف) أن يمس، أما إذا جاء الحديث (مع)، أو(عن)، أو(إلى) ذلك الأخ المسلم (المخالف) فعند كثيرٍ منا -إلا من رحم الله- لا تحسس ولا تدسس ولا مجاملة، ولا حتى حسن مجادلة معه، مع أن حسن المجادلة مطلوبة مع أهل الكتاب، فكيف بمن جعلته الشريعة في منزلة الأقربين من الأهل والأصحاب؟!

■ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]: كلما ندب دعاة الوفاق أنفسهم لمحاولة إصلاح ذات البين بين خواص الأمة، انبرى لهم دعاة الشقاق متهمين إياهم بأنهم أصحاب نهج (عاطفي)، أو أن الواحد منهم مجرد (واعظ) لا يرقى إلى مستوى فوق الخطب والمواعظ !! نقول: هبهم (عاطفيين) فمتى أصبح شأن المؤمنين في (تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم) أمراً مستهجناً؟ وهل تستنزل الرحمة إلا بذلك التراحم وتلك العاطفة فيما بين المسلمين؟ ثم.. ماذا يُنقم من (الموعظة)، ولماذا يُهوَّن من شأنها، مع أن القرآن كله (موعظة) وكذلك التوراة المنزلة من عند الله، والإنجيل المنزل من عند الله.

قال سبحانه عن القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال عن التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال عن الإنجيل: ﴿وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]، وليست المواعظ في الرقائق والسلوكيات فحسب، بل إن الأمر بالنظر في جوهر الرسالة وهو التوحيد

ليست المواعظ في الرقائق والسلوكيات فحسب، بل إن الأمر بالنظر في جوهر الرسالة وهو التوحيد موعظة، والنهي عن الشرك ومزالقه ومداخله موعظة.

موعظة، والنهي عن الشرك ومزالقه ومداخله موعظة، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

- «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»(١)، كلمات مضيئة من مشكاة النور النبوي؛ فهل تربت الأجيال في الفصائل والتجمعات، على ذلك الخُلق السامي مع (كل المؤمنين)، ولو كانوا مخالفين في «الانتماء»، أو مغايرين في «الفكر» ؟!.. ثم.. ما حقيقة هذا «الانتماء»، عندما يتعارض مع الانتماء المعقود في السماء ؟ وما قيمة ذلك «الفكر» الذي لا ينطلق من الفقه القرآني والهدى الرسولي عندما يدعو ذلك الفكر إلى قطيعة وجدانية بين المؤمنين الذين «تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم»(٢).

- «المسلم أخو المسلم»(٣) هذه مقولة نبوية، وشرعة إلهية، وهي مع ذلك بدهية أولية من بدهيات الإسلام، ليست من مسائل الخلاف الوعر أو البحث الدقيق، ولكن تعالوا ننظر في واقعنا - نحن الإسلاميين -: هل ينظر كل منا إلى الآخر هذه النظرة، وهل يطبق معه هذه البدهية؛ فـ«لا يظلمه ولا يسلمه ولا يحقره»؟!

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الأدب، رقم (٥٥٥٢)؛ ومسلم في كتاب البر والصلة، رقم (٤٦٨٥)، واللفظ للبخاري.
(٢) أخرجه: النسائي في كتاب القسامة، رقم (٤٦٥٣)؛ وأبو داود في الجهاد، رقم (٢٣٧١)؛ وابن ماجة في الديات، رقم (٢٦٧٣)، وقال الألباني: حسن صحيح، صحيح أبي داود، رقم (٢٣٩٠).
(٣) أخرجه: البخاري في كتاب المظالم، رقم (٢٢٦٢)؛ ومسلم في كتاب البر والصلة، رقم (٤٦٥٠).

وصف الإيمان يستوجب منا أن نكون متراصين في بنياننا، معتصمين بالله في مناهجنا وعلاقاتنا، وهذا الاعتصام تكليف للعامة والخاصة؛ فكيف ننادي في العامة بالاجتماع تحت راية الإسلام، ونحن غارقون في الفرقة، والناس يروننا ونحن حملة الراية أوْلى الأمة بذلك الاجتماع؟

■ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضُه بعضَه، وشبك بين أصابعه»[1].

وصف الإيمان - في هذا الحديث العظيم - يستوجب منا أن نكون متراصين في بنياننا، معتصمين بالله في مناهجنا وعلاقاتنا، وهذا الاعتصام تكليف للعامة والخاصة؛ فكيف ننادي في العامة بالاجتماع تحت راية الإسلام، ونحن غارقون في الفرقة، والناس يروننا ونحن حملة الراية أوْلى الأمة بذلك الاجتماع؟ هل أقمنا البنيان على مبدأ الأخوة في الله، حتى يشد بعضه بعضاً، أم أقيم ذلك البنيان على أسس من المحبة في....، وفي....، وفي....، وفي.... حتى أصبحت مبانينا يهد بعضها بعضاً، بدلاً من أن يشد بعضها بعضاً؟!

■ «أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله». هذا الحديث يجعل أمر الولاء والبراء من أصول الاعتقاد، ومن أمر الدين الذي تكفل الله ببعث من يجدده، كما قال النبي ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة عام من يجدد لها أمر دينها». فالنظرة الشرعية «التجديدية» تدعو دائماً إلى إحياء ما اندرس من معالم الدين، ومنها وفي مقدمتها بعد التوحيد عقيدة الولاء والبراء، الداعية إلى الحب في الله والبغض لله.

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الصلاة، رقم (٤٥٩)؛ ومسلم في كتاب البر والصلة، رقم (٤٦٨٤)؛ والإمام أحمد في مسنده، رقم (٩٤٤).

□ الحاضر الغائب (لعنه الله):

ونعني به ذلك العدو المبين الذي قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً﴾ [فاطر: ٦]؛ فمن عظيم عداوته، وشدة أذاه لأولياء الرحمن أنه يتربص بأُخُوَّتهم، ويستهدف محبتهم، ويحرص لعنه الله على أن ينال حظه من مجموع المؤمنين بالمعاصي الجماعية، بعد أن ينال من آحادهم بالمخالفات الفردية، وذلك بأن يضل الجميع عن أعظم محاب الله، وهو الحب في الله، فينشر البغضاء، ويشيع الكراهية، ويبث الأحقاد والضغائن والإحن، ليظفر عليه اللعنة من وراء ذلك بكم كبير من الكبائر... نعم الكبائر والآثام التي يقع فيها المتدابرون والمتباغضون والمتنازعون المتفرقون.

تصور معي شخصاً، لا يقيم علاقته مع إخوانه المسلمين على الميزان الشرعي للأخوة الإيمانية، فيقع -كما نشاهد كثيراً- في بغض أخ له بغير حق، وفي عداوته لغير الله، إنه سيحوز بلا شك، من وراء ذلك الخلل الشرعي في علاقته بأخيه، عدداً غير قليل من كبائر الذنوب وموبقات الآثام، وقد لا يشعر بذلك لتزيين الشيطان له سوء عمله حتى يراه حسناً.

■ إنه قد يحتقره، واحتقار المسلم من الكبائر «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[1].

■ وقد يهجره هجراً غير شرعي فوق ثلاث، وذلك لا يحل له؛ لقوله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[2].

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الأدب، رقم (٥٦٠٥)؛ ومسلم في البر والصلة، رقم (٤٦٥٠).
(٢) أخرجه: البخاري في كتاب الأدب، رقم (٥٦٠٥)؛ ومسلم في البر والصلة، رقم (٤٦٤١).

■ وقد يعتدي عليه في عرضه أو ماله أو نفسه، وذلك من الكبائر ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

■ وقد يسبه أو يتشاجر معه، وذلك من الكبائر؛ لأن «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(١).

■ وقد يسيء به الظن؛ وذلك لا يحل بحال؛ لأن ﴿بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

■ وهو في الغالب سيستحل غيبته ويقع في عرضه، وذلك من الكبائر؛ لأن الله قال: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾ [الحجرات: ١٢].

■ وهو لا بد واقع في همزه ولمزه، وذلك من الكبائر؛ لأن الله قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وقال: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُم﴾ [الحجرات: ١١].

■ وأخونا هذا أو أختنا سيقعان غالباً في السخرية من إخوانهم أو أخواتهن، وذلك من الإثم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنّ﴾ [الحجرات: ١١].

■ وقد يصعِّر أحدهم خده لأخيه، أو يتكبر عليه، أو يمنع عنه الماعون، أو يخذله أو

(١) أخرجه: الترمذي في البر والصلة، رقم (١٨٦٠)؛ وأحمد في مسنده، رقم (١٤٢٨٨)، وقال الألباني صحيح (السلسلة الصحيحة/ ٢٩٤٧).

يسلمه، أو يوشي به أو يتجسس عليه أو يؤذيه بأي نوع متعمدٍ من الأذى، وكل ذلك من الكبائر أو الآثام التي كثر التحذير منها في نصوص الشريعة، والتي أجمل الله ذمها وذم أهلها في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وهنا يفرح الشيطان، ويرقص طرباً، وهو يتفرج على هؤلاء (الإخوة الأعداء) الذين قد يقنع منهم بتلك الذنوب من كبائر أعمال القلوب، عوضاً عن إيقاعهم في كبائر الجوارح التي يعلم الملعون أن التورع عنها أسهل من التورع عن ذنوب القلوب.

لن نعجب بعد ذلك، عندما نعلم أن حظ إبليس اللعين من الإيقاع بين المسلمين يكفيه في نفث عداوته، وإنفاذ أحقاده؛ وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون، ولكن في التحريش بينهم»[1]، إن ذلك التحريش قد يوقعه الشيطان بين أهل الصلاة، بحزازات حزبية، أو خلافات فكرية، أو فروق طبقية، أو عرقية أو عنصرية، وقد يوقعهم في ذلك بسبب حواجز وهمية أو أحقاد متوارثة تاريخية، لا بل قد يحرش بين المصلين بمجرد اختلافات (جغرافية) ليس لأحد فيها اختيار، فيجري على ألسنة المخدوعين به عبارات الاستثقال والاحتقار لأهل بلد، بل لجهة في البلد الواحد دون جهة، كأن يسخر مثلاً من أهل (الجنوب) في بلدٍ ما، أو سكان (الشمال) في أرض ما، كما قد يغري أهل (الشرق) في ناحية ما؛ بالتكبر على أهل (الغرب) في ناحية أخرى أو العكس، فتنطلق على ألسنة البعض عبارات النتن الكريه الذي كرم الله المؤمنين عنه،

(١) أخرجه: البخاري في كتاب التفسير، رقم (٤٥٢٥)؛ ومسلم في البر والصلة، رقم (٤٦٨٢).

وكرَّههم رسوله ﷺ أن يخوضوا فيه، في قوله عليه الصلاة والسلام لمن كادوا أن يفتنوا بالتحريشات الجاهلية: «ما بال دعوى الجاهلية ؟! دعوها فإنها منتنة»[1]، يقصد بذلك ﷺ التعالي بالأحساب والأنساب، والتميز بالأسماء والألقاب.

أين موقع التحصين من تلك المخاطر في مناهجنا التربوية، وبرامجنا التعليمية والتثقيفية ؟! أظن أن أمامنا كثير من الوقت، حتى تحل (ثقافة الإخاء) أو (فقه الوفاق) في قلوب الناشئين والمُنشِّئين وعقولهم؛ لأن الثقافة المعاكسة، والفكر المخالف في ذلك، قد كاد يستفرد بالعقول والقلوب حيناً من الدهر، حتى لقد أثمر هذا الخلل أحوالاً من الخصام شبه العام في غير ما قضية، بما يستوجب بحكم الشرع والدين إجراء مصالحة شاملة بين أنصار الشرع وأهل الدين ترغم أنف الشيطان، وتحبط خطط الأعداء.

□ الشعيرة الغائبة :

لا بد من عزمة أكيدة على إحباط خطط الشياطين في التفريق بين المؤمنين، لا بد من أن ينتدب قوم من العقلاء والصلحاء لمهمة إصلاح ذات البين بين خاصة الأمة فضلاً عن عامتها. لا بد من بذل الجهد واستفراغ الوسع في الإصلاح بين طوائفها وفصائلها وجماعاتها ومنظماتها.

ما نقوله ليس اختراعاً لاقتراح، بل هو تذكير بشعيرة منسية، يبدو أن الخلافات شغلتنا عنها، والمزايدات زهدتنا فيها.

---

(١) تفسير ابن كثير للآية ١ من سورة الأنفال، (١/ ٣١٦) طبعة الندوة العالمية.

إن الإصلاح بين المؤمنين فريضة أخرى لا تقل أهمية عن فريضة الاعتصام بحبل الله؛ فقد خاطب الله تعالى خير أجيال البشر في زمان خير البرية ﷺ آمراً إياهم بأن يتقوا الله في الإصلاح، ويندبوا له من يقوم به، فقال جل شأنه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وهل هناك أقدر على الإصلاح في الأمة منا نحن الإسلاميين؟ وهل هناك أحوج إلى الإصلاح في الأمة منا نحن الإسلاميين ؟ إن الآية أمر إلهي لنا، وللأمة جميعاً بأن نبادر إلى رفع أسباب الشقاق، وإحلال أسباب الوفاق.

إن الإصلاح بين المؤمنين فريضة أخرى لا تقل أهمية عن فريضة الاعتصام بحبل الله، وهل هناك أقدر على الإصلاح في الأمة منا نحن الإسلاميين؟

يقول ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، «أي: واتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا، ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه». ثم أورد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قوله: «هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا الله ويصلحوا ذات البين»[1].

وانتداب طائفة من الإسلاميين العاملين لبذل جهد إصلاحي بين الفصائل الإسلامية؛ ليس كما يظن البعض كتابة على الرمال أو نطحاً للجبال؛ فهذا من تسويلات الشيطان وتحريشاته العنيدة، بل إن مجهودات المصالحة لا بد أن تعود بخير؛ لأن الله تعالى قال في شأن الزوجين: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]؛ فما بالنا بخيرية الصلح بين جماعتين أو اتجاهين أو أكثر أو أقل ؟ إن إصلاح ذات البين لا بد أن تكون له آثاره وثماره،

(١) أخرجه: الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (٢٤٣٢)، وقال الألباني: حسن لغيره، انظر: صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٢٨٢٧).

وقد يكون نصيب المصلحين، ما يعود على أشخاصهم هم من نفع وبر فضلاً عن دفع الشر والضر؛ فالله تعالى يقول: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٤]، فهل يُزهد في هذا الأجر العظيم، وهل يفرط حريص على الخير في تلك الفضيلة الكبرى التي جاء الخبر المعصوم بأنها الأفضل بين الأفضل من الأعمال؟ قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا بلى! قال: صلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[1].

بلى والله.. تحلق الدين وتميت الشعور.

☐ هذا البراء، فأين الولاء..؟

لا أدري، لماذا أشعر كثيراً بأننا شطرنا تلك القضية في واقعنا الإسلامي إلى شطرين: أحدهما: فاعل حي، والثاني: خامل ضامر.

أعني بذلك أن مسائل الولاء، لم تحظ دعوياً وعلمياً بذاك الاهتمام الذي نالته مسائل البراء، بل تكاد قضايا الولاء الشرعي للمؤمنين بأحكامه ومسائله تذوب وتتوارى خلف قضايا البراءة الشرعية من الكافرين، مع أن هذه لا تقل أهمية عن تلك، ولهذا اقترنت هذه دائماً بتلك؛ فهل السبب في ذلك هو أن الأعداء أفلحوا في إحياء مشاعرنا في البراءة منهم بكثرة اعتدائهم وكشفهم عن أحقادهم ؟!... ربما، وهل ساعد على ذلك أن

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، رقم (٤٦٧٧).

علماء الصحوة ودُعاتها في مرحلة سابقة ركزوا كثيراً في طروحاتهم وأدبياتهم على إحياء البراء قبل الولاء والإخاء ؟!... قد يكون.

لكن الحقيقة الضائعة وسط ذلك، هي أن البراء بلا ولاء لن يجدي كثيراً في إنهاضنا من كبواتنا؛ فقضية الولاء ليست ذات بُعْد عقدي فقط، ولكن لها أيضاً بُعد واقعي، نحياه منذ عهود طويلة، فأنا أزعم، بل دعني أقول: أجزم بأن التفريط في أسباب الولاء والإخاء بين المسلمين هو تفريط في رأس مالنا، وفي أكبر أسباب استجلاب النصر لنا.

فعندما امتنَّ الله تعالى على رسوله ﷺ بأنه أمدَّه بكل أسباب النصرة والتأييد جعل كل تلك الأسباب: من تنزيل الملائكة، وتثبيت الأقدام، وإنزال الغيث، وتنزل السكينة على قلوب المؤمنين، مع إلقاء الرعب في قلوب الكافرين؛ جعل ذلك كله في كفة، وجعل التأييد بالمؤمنين المتآخين المتآلفين في كفة أخرى، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣]؛ فالله تعالى أيد رسوله ﷺ بمؤيدات كونية وعلى رأسها الإمداد بالملائكة، ومؤيدات شرعية وعلى رأسها التأييد بالمؤمنين المتآلفين الذين ألف بينهم هذا الدين بتشريعاته السامية.

قال الشيخ السعدي -رحمه الله- في تفسيره لتلك الآية: «أي أعانك بمعونة سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين، بأن قيضهم لنصرك ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا وائتلفوا وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم»[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ السعدي، (٣/ ١٨٦).

إن روح التحقير أو التنفير من شأن ذلك الاجتماع والائتلاف؛ هو تفجير لأكبر مستودعات القوة لدى المسلمين، وبعث لأقوى عوامل الفتنة فيما بينهم، مهما كان المسمى الذي تتسمى به تلك الروح.

> إن روح التحقير أو التنفير من شأن ذلك الاجتماع والائتلاف؛ هو تفجير لأكبر مستودعات القوة لدى المسلمين، وبعث لأقوى عوامل الفتنة فيما بينهم، مهما كان المسمى الذي تتسمى به تلك الروح.

قال ابن تيمية -رحمه الله-: «كل ما أوجب فتنة وفرقة، فليس من الدين، سواء كان قولاً أو فعلاً»[1].

والذين يطوِّلون ذيل البراء، حتى يمدونه إلى ساحة الولاء وبيت الإخاء بذرائع خلافية، وفي مسائل قد تكون اجتهادية، هؤلاء ينزلون ألواناً من العداوة إلى غير محلها، مع أننا لسنا أحراراً في أفعال قلوبنا من محبة أو بغضاء، بل نحن متعبدون بألا نحب إلا لله، ولا نبغض إلا لله.

وتعدي الحدود الشرعية في ذلك وبخاصة في المسائل الاجتهادية لون من البغي وصنف من العدوان. قال ابن تيمية -رحمه الله-: «الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقد أرسى شيخ الإسلام قاعدة ذهبية في التعامل بين المسلمين على أساس مراعاة

---

(١) الاستقامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (١/ ٣٩).

الموالاة الإيمانية التي عقدها الله تعالى بينهم في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقول الرسول ﷺ: «كونوا عباد الله إخواناً»(١)، فقال عليه رحمة الله: «على المؤمن أن يعادي في الله، ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن، فعليه أن يواليه وإن ظلمه؛ فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية؛ قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي، وأمر بالإصلاح بينهم؛ فليتدبر المؤمن: أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام والثواب لأوليائه، والإهانة والعقاب لأعدائه، وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر»(٢)، وقد حرص الإمام -رحمه الله- على بيان الفصل التام بين طبيعة التعامل مع الكافرين بمقتضى عقيدة البراء، والتعامل مع المؤمنين بمقتضى عقيدة الولاء، مبيناً أنه لا تنقطع الموالاة عن مؤمن أبداً، فقال: «الحمد والذم، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة، إنما تكون بالأشياء التي أنزل الله بها سلطانه، وسلطانه كتابه؛ فمن كان مؤمناً وجبت موالاته من أي صنف كان، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان»(٣)، وحذر شيخ الإسلام أيضاً من إطلاق العنان

(١) سبق تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (٢٨/ ٢٠٨).

(٣) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ٢٠١).

للنفس لتحب من تشاء وتبغض من تشاء دون تقيد بسلطان القرآن ومنهاج السنة، فقال: «من الناس من يكون حبه وبغضه، وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله، وبغض الله ورسوله؛ وهذا نوع من الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]»[1].

إن إحياء الموالاة بين المؤمنين، هو استدعاء لموجبات ولاية الله، وولاية الله موجبة لرحمته ونصرته، وفي الوقت نفسه فإن التنكر لتلك الموالاة للمؤمنين، والتماسها عند غير أهلها؛ من موجبات الحرمان من الولاية الإلهية.

عياذاً بالله.

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال حَبر الأمة، عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»[2].

---

(١) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (١/ ٣٥٤).
(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم، (١/ ٣١٢) وجامع العلوم والحكم، ص ٣٠.

□ أقَدِم ولا تتردد!

الإخاء روح يسري، وفقه يُشاع، وثقافة تنتشر، وعلى العكس تماماً، فإن الجفاء له روحه وفكره وثقافته، ولكل من روح الإخاء والجفاء أهل، ولكل منهما أنصار ورموز ومنظِّرون ومندوبون، مسوِّقون وموزِّعون.

وبقدر ما تُخدم قضايا الإصلاح يجيء الإصلاح، وبقدر ما تخدم جهود الفرقة، تعم الفرقة، وفي أوضاعنا المعاصرة، عندي ما يشبه اليقين، بأن الجهود التي تبذل من أجل الوفاق والائتلاف، لا تبلغ عشر معشار ما بذل ولا يزال يبذل من جهود الشقاق والاختلاف، وإذا كان قد فرط من أمرنا في ذلك ما فرط، مما لا يرضي الله سبحانه ولا رسوله ﷺ، فلا أقل من المسارعة الآن إلى تدارك ما فُرط فيه؛ قبل أن ينفرط ما تبقى من عقودنا وعهودنا، ويسقط ما تبقى من شعاراتنا ومشاريعنا؛ فالظرف قاهر، والأزمات محكمة، والعدو من كل صنف أصبحوا كصف واحد برأي واحد في تحدٍّ سافر، وعناد خطير، هم فيه أولياء متناصرون، وحلفاء متعاضدون: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

نعم! فساد كبير أن يتحد أعداؤنا ونتفرق، وفساد كبير أن يتعاونوا على الإثم والعدوان ولا نتعاون على البر والتقوى، وفساد كبير أن يكونوا على أفجر قلب رجل واحد منهم، ولا نكون على أتقى قلب رجل واحد منا.

فساد كبير أن يتحد أعداؤنا ونتفرق، وفساد كبير أن يتعاونوا على الإثم والعدوان ولا نتعاون على البر والتقوى، وفساد كبير أن يكونوا على أفجر قلب رجل واحد منهم، ولا نكون على أتقى قلب رجل واحد منا.

هل بقي هناك متسع للتردد في أهمية وإمكانية، بل فرضية الانتداب للإصلاح؟! اندب نفسك أخي من الآن، وشارك بعقلك وقلبك وروحك في إشاعة روح الوفاق والاتفاق، فذاك عمل تغييري كبير، ودور عظيم في (العمل الإسلامي) لا يحتاج إلى تنظيم أو جماعة، أو تنظير أو تقعير؛ فالأمر في غاية البساطة: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ولا يحقره» اعلم أهمية ذلك واعمل بذلك، وادع الجميع من حولك إلى إحياء ذلك الهدي النبوي العظيم «لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى ها هنا، التقوى ها هنا»[1].

لعل الله أن يجعلنا وإياك من المتقين.

إن روح الإخاء تلتقي مع صفاء الفطرة، وإنه بقدر الغيرة على الدين يكون الحرص على ائتلاف أهل الدين، وإن من علامة سلامة الفكر والعقل سلامة الصدر، ومن أمارات رجاحة الرأي الشغف بالوفاق والنفور من الشقاق، وأنت أيها القارئ! نعم أنت أنت...

لا أراك إلا من الموفورين حظاً في صفاء الفطرة وسلامة الصدر ورجاحة العقل، فليكن لك رأي، ولتكن لك مشاركة في دفع تيار المصالحة الإسلامية والولاية الإيمانية نصحاً لله ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم.

إن كل خطط الأعداء قد وضعت على افتراض بقاء المسلمين عامة، والإسلاميين منهم خاصة في حال من الوهن والتشرذم والفشل الناتج عن التنازع والتخالف والفرقة؛

---

(١) أخرجه: مسلم في كتاب البر والصلة، رقم (٤٦٥٠).

فهم يعلمون عنا من خلال المنافقين بيننا كل ذلك، ولهذا فهم يخططون وينفذون وهم آمنون من أي (مفاجآت) تضامنية على المدى القريب والمتوسط والبعيد، ظانين أن هذه الأمة قد فُرغ منها، فأيس عوامها من زعمائها، وانفصلت قمتها عن قاعدتها على المستوى العام والخاص. فدورنا الآن أن نغير خطنا في الفرقة والشقاق إلى خطط للوحدة والألفة والوفاق.

وحتى لا نكون (قدريين) أو (عاطفيين) أو (واعظين) فقط! فهذه بعض خطوات (عملية) يمكن أن نفتتح بها عهداً جديداً لمرحلة جديدة لعمل إسلامي قائم على أسس الإصلاح والإخاء والتناصح والتراحم:

١) انتصاب جمع من أهل العلم والدعوة والفكر، من أنحاء مختلفة، لمهمة وضع ورقة عمل، لما يمكن أن يكون (ميثاق عمل إسلامي) يوضح بصورة علمية منهجية الخطوط العريضة التي ينبغي أن يتوافق العاملون في أهل السنة جميعاً على الالتقاء حولها، مع بيان ما يجوز الاختلاف حوله وما لا يجوز، وإبراز ماهية خلاف التنوع الجائز المحمود، وخلاف التضاد المحرم المذموم، وأخلاقيات المسلم عند وقوع الاختلاف ونحو ذلك، على أن تنطلق هذه الورقة من أساس راسخ قائم على علمَيْ أصول الفقه وأصول الاعتقاد.

٢) إبراز أهم الدراسات الجادة في فقه الخلاف، وأدب الحوار، وأصول الجدال بالحسنى، واستخلاص أهم ما يمكن توظيفه (عملياً) من تلك الدراسات في تنقية الأجواء الإسلامية، والمسارعة إلى ما يمكن أن يكون (حملة مصالحة)

علمية وإعلامية، ترتكز على مفاهيم الوفاق والاتفاق والأخوة في ظل (عقيدة) الولاء والبراء، و (شريعة) الاعتصام بحبل الله، و (شعيرة) إصلاح ذات البين و (سلوك) المحبة والإخاء، وذلك لدفع تيار عام في الأمة يدعو إلى مصالحة إسلامية، وأتصور أن العديد من منابر الدعوة، ودور النشر، ووسائل الإعلام الإسلامي المقروءة والمسموعة والمشاهدة، يمكن أن يقوم القائمون عليها بدور فاعل في ذلك، يحتسبون فيه الأجر، ويساهمون من خلال ذلك في المسيرة التي طالما طالب الناصحون للأمة بتفعيلها وهي (ترشيد الصحوة الإسلامية).

٣) إضافة بند جديد إلى ما اشتهر في السنوات الأخيرة بعمليات (المراجعة) بحيث تنطلق من ذلك البند عملية (مراجعة) جديدة وجادة للبرامج التربوية في التجمعات الإسلامية، لتنقيتها من كل ما لا يرضي الله ورسوله، من شوائب التعصب والتحزب، وآفات الفرقة والاختلاف، وهي موجودة بنسب متفاوتة في تلك البرامج، ولكن مراجعتها تحتاج فقط إلى نوع من التجرد والإخلاص.

٤) عند صياغة برامج تربوية جديدة؛ فمن المهم إعطاء قضية الولاء والإخاء والتآلف بين المسلمين؛ مساحتها الكبيرة الجديرة بها، حتى تتربى الأجيال الناشئة على غير ما تربت عليه الأجيال التي سبقتها، وسيساعد على تلك النقطة ما جاء في النقطة رقم (٢). فمن غير المنتظر أن تزول (آثار العدوان) الشيطاني على أُخوتنا الإسلامية بين يوم وليلة، بحدث قدري بحت كما سبقت الإشارة، ولكنه التواصي بالحق والصبر، حتى تنمو ثمرات البر والتقوى.

٥) من المهم إجراء دراسات محايدة لفهم خلفيات الخلافيات، ورصد العوامل التاريخية والشخصية فيها؛ فكثير من الخلافات متوارثة دون تمحيص، والعديد منها أسبابه نفسية قبل أن تكون فقهية أو فكرية، وبالإمكان حصر مسائل الاختلاف الحقيقية بين فصائل أهل السنة المعاصرين، وإخضاعها لبحوث علمية جادة، أو استصدار فتاوى معتمدة فيها، من أهل العلم والفتوى، لتقليل مساحات الاختلاف كلما أمكن.

٦) يمكن استحداث منابر متخصصة في شؤون العمل الإسلامي تسعى في جهود (التقريب) بين أهل السنة؛ بحيث يكون بعضها على شكل مجلات، أو برامج أو مواقع، أو على الأقل زوايا خاصة بذلك، تسمح بفتح حوار يدار بأسلوب راقٍ، ونفوس صافية، أو مستعدة للصفاء.

أعرف أن هناك العديد والعديد مما يمكن إضافته من مقترحات لدى المهتمين، من أجل جهد أكبر في إحياء الوفاق الإسلامي، ولعل جهودنا جميعاً تتضافر حسبة لله للمساهمة في تغيير خططنا لمواجهة واقعنا، قبل أن تدهمنا جميعاً خطط عدونا لتغييرنا.

مقترحات عملية للإصلاح

١ إعداد ميثاق عمل إسلامي

٢ إبراز الدراسات الجادة في فقه الخلاف

٣ مراجعة البرامج التربوية

٤ العناية بقضية الولاء والإخاء بين المسلمين

٥ إجراء دراسات محايدة لفهم خلفيات الخلاف

٦ استحداث منابر للتقريب بين أهل السنة

وحدة الصف ضرورة

د. محمد بن عبدالله الدويش

يتفق العقلاء من الناس على أن الاجتماع والائتلاف مطلب ضروري لا غنى عنه لأمة تريد الفلاح.

وقد جاء الشرع بالتأكيد على هذا الأصل ورعايته، ولكن المواقف والأحداث تعصف بالناس، وتحوج إلى التأكيد على هذه المعاني والوصية بها.

وتفرز الأحداث الساخنة اختلافاً في الآراء والمواقف، وهو أمر لا بد أن يقع من البشر، لكن هذا الاختلاف اتسعت شقته، وبدأ يتجاوز قدر الاختلاف في الرأي، وبدا معه أن الحاجة ماسة إلى الوصية والتأكيد على معاني الاجتماع والائتلاف.

وثمة أمور بها تتضح أهمية وحدة الصف والحاجة إليه، ومنها:

□ الأمر الأول: نصوص القرآن الكريم:

جاء التأكيد في القرآن الكريم على مراعاة هذا الأصل، ومن ذلك: قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

روى ابن جرير عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: «وأما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم»[1].

وروى أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «خلقهم فريقين: فريقاً يرحم فلا يختلف، وفريقاً لا يرحم يختلف؛ وذلك قوله: فمنهم شقي وسعيد»[2].

□ الأمر الثاني: أن هذا مما بعث الله الأنبياء به:

كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم دعاة لوحدة الصف وجمع الكلمة، قال الإمام البغوي: «بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة»[3].

> كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم دعاة لوحدة الصف وجمع الكلمة، قال الإمام البغوي: «بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة».

وقد اختلف بعض الأنبياء في الرأي، فاختلف موسى و هارون: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢-٩٤].

ولو وقع مثل هذا الأمر في عصرنا فقد تجد من يتهم مثل هارون بأنه سكت عن إنكار الشرك الأكبر، وأن المسألة خلل في الاعتقاد وانحراف في المنهج.... إلخ.

وبغض النظر عن الأصوب من الاجتهادين فالخلاف حصل، وعذر كل منهما الآخر.

---

(١) تفسير ابن جرير: (١٢/ ١٣٤).
(٢) تفسير ابن جرير: (١٢/ ١٣٤).
(٣) معالم التنزيل: (٤/ ١٢٢).

كما اختلف الخضر وموسى، واختلف سليمان و داود: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]، واختلفا عليهما السلام في شأن المرأتين اللتين اختصمتا في الابن، واختلف آدم وموسى.

ولم يكن هذا الخلاف موجباً للفرقة والاختلاف.

واختلفت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب في شأن قاتل المائة حين مات بين القريتين[١].

□ الأمر الثالث: نصوص السنة:

لقد تكررت الوصية في السنة بالاعتناء بالاجتماع ووحدة الصف، وتكرر النهي عن التفرق والاختلاف، ومما ورد في ذلك:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً: فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا. ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[٢].

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها..... الحديث وفيه: قال النبي

(١) معالم التنزيل: (٤/ ١٢٢).
(٢) انظر: إيثار الحق على الخلق، لابن الوزير، ص ١١٩.

ﷺ: وأنا آمركم بخمسٍ الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة؛ فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع...»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس! إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال: «أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف، ويشهد الشاهد ولا يُستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة؛ فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن»[2].

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «البركة في ثلاثة: في الجماعة، والثريد، والسحور»[3].

□ الأمر الرابع: واقع أصحاب النبي ﷺ:

لقد كان لأصحاب النبي ﷺ اعتناء بالغ بهذا الأمر، وكان الخلاف في الرأي يحصل بينهم، ومع ذلك كانت النفوس صافية نقية.

لقد كان لأصحاب النبي ﷺ اعتناء بالغ بهذا الأمر، وكان الخلاف في الرأي يحصل بينهم، ومع ذلك كانت النفوس صافية نقية.

نقل الحافظ في الفتح عن القرطبي قوله: «مَنْ تَأَمَّلَ مَا دَار بَيْنَ أَبِي بَكْر وَعَلِيٍّ مِنْ الْمُعَاتَبَةِ وَمِنْ الاعْتِذَارِ وَمَا تَضَمَّنَ ذَلِكَ مِنْ الإنْصَافِ عَرَفَ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَعْتَرِفُ بِفَضْلِ الآخَرِ،

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٧١٥).
(٢) أخرجه: أحمد رقم (١٦٧١٨)؛ والترمذي رقم (٢٨٦٣).
(٣) أخرجه: الترمذي رقم (٢١٦٥)؛ وأحمد رقم (١١٥).

وَأَنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ مُتَّفِقَة عَلَى الاحْتِرَام وَالْمَحَبَّة، وَإِنْ كَانَ الطَّبْع الْبَشَرِيّ قَدْ يَغْلِب أَحْيَانًا لَكِنَّ الدِّيَانَة تَرُدُّ ذَلِكَ وَاَللَّه الْمُوَفِّق»[1].

عن عبد الرحمن بن شماسة قال: أتيت عائشة رضي الله عنها أسألها عن شيء فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئاً، إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة، فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»[2].

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: ذهبت أسب حسان عند عائشة رضي الله عنه فقالت: «لا تسبه؛ فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ»[3].

وها هو ابن عباس رضي الله عنهما يثني على ابن الزبير رغم ما كان بينهما.

قال ابن أبي مليكة: وكان بينهما شيء، فغدوت على ابن عباس فقلت: أتريد أن تقاتل ابن الزبير فتحل حرم الله؟ فقال: معاذ الله! إن الله كتب ابن الزبير و بني أمية محلين، وإني والله لا أحله أبداً، قال: قال الناس بايع لابن الزبير، فقلت: وأين بهذا الأمر عنه؟ أما أبوه

---

(١) أخرجه: الطبراني والبيهقي.

(٢) فتح الباري.

(٣) أخرجه: مسلم رقم (١٨٢٨).

فحواري النبي ﷺ يريد الزبير، وأما جده فصاحب الغار يريد أبا بكر، وأمه فذات النطاق يريد أسماء، وأما خالته فأم المؤمنين يريد عائشة، وأما عمته فزوج النبي ﷺ يريد خديجة، وأما عمة النبي ﷺ فجدته يريد صفية، ثم عفيف في الإسلام، قارئ للقرآن»[1].

وفي حديث الإفك تعتذر عائشة رضي الله عنها عن سعد بن عبادة فتقول: «فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية»[2].

وقد خالف ابن مسعود رضي الله عنه عمر بن الخطاب في مسائل بلغت المائة -كما ذكر ابن القيم في إعلام الموقعين- ومع ذلك فحين أتى ابن مسعود اثنان أحدهما قرأ على عمر، والآخر قرأ على غيره، فقال الذي قرأ على عمر: أقرأنيها عمر بن الخطاب، فجهش ابن مسعود بالبكاء حتى بلَّ الحصى بدموعه، وقال: اقرأ كما أقرأك عمر؛ فإنه كان للإسلام حصناً حصيناً، يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه، فلما أصيب عمر انثلم الحصن.

وقال عنه عمر رضي الله عنه قولته المشهورة: «كنيف مُلِئَ علماً».

إنها النفوس التي صفت وتسامت على حظوظها، فلم يجد الهوى بينهم مكاناً، وحين يحصل بينهم ما يحصل للبشر لا يمنعهم ذلك من العدل، ولا يقودهم إلى تتبع الزلات وملاحقة العثرات.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦١٥٠).
(٢) أخرجه: البخاري رقم (٤٦٦٥).

□ الأمر الخامس: الاجتماع من سمات أهل السنة وصفاتهم:

من سمات أهل السنة الاجتماع والائتلاف، وهم من أشد الناس حرصاً عليه ودعوة له، كيف لا وهم الجماعة وهم السواد الأعظم.

قال الطحاوي رحمه الله: «ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً»[١].

قال النووي حول حديث: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً»: (وأما قوله ﷺ: «ولا تفرقوا» فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين، وتآلف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام)[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والخير كل الخير في اتباع السلف الصالح والاستكثار من معرفة حديث رسول الله ﷺ، والتفقه فيه، والاعتصام بحبل الله، وملازمة ما يدعو إلى الجماعة والألفة، ومجانبة ما يدعو إلى الخلاف والفرقة، إلا أن يكون أمراً بيناً قد أمر الله ورسوله فيه بأمر من المجانبة فعلى الرأس والعين، وأما إذا اشتبه الأمر: هل هذا القول أو الفعل مما يعاقب صاحبه عليه أو ما لا يعاقب؟ فالواجب ترك العقوبة»[٣].

□ الأمر السادس: مصالح الاجتماع لا تقارن بمفاسد الفرقة:

ثمة طائفة ممن يثيرون الفرقة يدفعهم لذلك الحرص والاجتهاد الخاطئ، ويسعون إلى تحقيق مصالح من تصحيح ما يعتقدون أن الآخرين أخطؤوا وتجاوزوا فيه، لكن يغيب عنهم أن مصالح الاجتماع لا تقارن بالمفاسد الناشئة عن الافتراق والاختلاف.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٦٦١).

(٢) متن العقيدة الطحاوية.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: (١٢/ ١١).

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة والفرقة عذاب»[1].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة؛ فإنهما السبيل في الأصل إلى حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة»[2].

وأشار إلى هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: «ولا سيما إذا آل الأمر إلى شر طويل وافتراق أهل السنة والجماعة؛ فإن الفساد الناشئ في هذه الفرقة أضعاف الشر الناشئ من خطأ نفر قليل في مسألة فرعية».

□ الأمر السابع: حاجة الصحوة إلى وحدة الصف:

لئن كان الاجتماع ووحدة الصف ضرورتين في كل وقت وحين؛ فالصحوة اليوم أحوج إليهما من أي وقت مضى.

لئن كان الاجتماع ووحدة الصف ضرورتين في كل وقت وحين؛ فالصحوة اليوم أحوج إليهما من أي وقت مضى.

إنها تعاني ضعف الطاقات ومحدودية الإمكانيات، وفي الافتراق والخلاف إضاعة للجهود، وتشتيت للطاقات.

وهي تعاني تآمر المفسدين وكيدهم، وفي إشاعة الاختلاف والفرقة خدمة لهؤلاء وخذلان لعباد الله الصالحين.

---

(١) رواه البيهقي عن النعمان بن بشير، وحسنه الألباني صحيح الجامع، ٣٠١٤.

(٢) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة: (١٥٨-١٥٩)؛ والآجري في الشريعة ١٣.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها، وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها. وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]. فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب»[1].

وحين تريد الصحوة الإسلامية تقديم مشروعات عامة، وحين تريد إنكار منكرات أو تحتسب على باطل، وحين تريد دعم قضية من قضايا المسلمين، فإن ذلك كله لن يتأتى مع التفرق والصراع والتشاحن، بل سيؤدي بطائفة من الناس إلى قصد مخالفة من لا يتفقون معه، ولو أدى ببعضهم إلى الوقوف في صف أهل الفساد أو تسويغ باطلهم، والهوى يصنع العجائب.

(١) مجموع الفتاوى: (٣/ ٤٢١).

□ من وسائل وحدة الصف:

أولاً: إدراك أهمية وحدة الصف:

لا بد من التأكيد على أهمية وحدة الصف وإشاعة الحديث حول ذلك حتى يتأكد هذا المعنى ويستقر، كما أن امتناع الداعية وطالب العلم المقتدى به عن بعض ما يطلب منه رغبة في وحدة الصف، وتنازله عن كثير من حقوقه الشخصية من أجل ذلك، كل هذا يربي تلامذته على الاعتناء بهذا الأصل، ويؤكده لديهم.

ثانياً: تقوية الأواصر والصلات:

مما يعين على وحدة الصف أن تتقوى الأواصر والصلات بين الدعاة والمصلحين، ويمكن أن يتم ذلك من خلال العلاقات الشخصية، والتزاور والاجتماع، وإقامة المشروعات المشتركة.

مما يعين على وحدة الصف أن تتقوى الأواصر والصلات بين الدعاة والمصلحين، ويمكن أن يتم ذلك من خلال العلاقات الشخصية، والتزاور والاجتماع، وإقامة المشروعات المشتركة، والتعاون على الأعمال الدعوية والاحتسابية.

ومع ما في ذلك من تحقيق للمحبة والمودة فإنه يفتح المجال للنقاش حول أمور الخلاف حين يوجد، فتكون هناك جسور مفتوحة يمكن التواصل من خلالها، أما حين لا يتم التواصل إلا عند الخلاف والنقاش فإن فرص التوافق ستكون أقل.

ثالثاً: الموازنة بين قول الحق ووحدة الصف:

لا يتصور أن يسعى شخص بقصد وإرادة إلى شق وحدة صف الأمة ودعاتها إلا مَنْ

في قلبه نفاق وكره لانتصار الدين، لكن عامة ما يحصل إنما هو شعور بالغيرة على الدين، ورغبة في بيان ما يعتقد الشخص بأنه هو الحق، وإن كان الغالب أن أمثال هؤلاء لا يسلم من ملابسة الهوى.

ومن ثم فإن الاحتجاج ببيان الحق وحده لا يكفي، ولا بد ها هنا من مراعاة أمور، منها :

أ) أن يكون الحق واضحاً جلياً؛ ذلك أن كثيراً من المسائل التي يُشق فيها الصف، إما أن تكون من مسائل الاجتهاد والأمر فيها واسع؛ فحينها لا ينبغي الإنكار فيها، فضلاً عن إثارة الخصومة.

أو أن يكون الأمر فيها تحقيق مناط وتنزيل حكم على واقعة؛ فالأمر فيه واسع ولا يجوز أن يلزم الشخص بأصل الحكم؛ فمن يرى عدم مشروعية عمل من الأعمال المنسوبة للجهاد مثلاً لا يجوز أن يوصم بأنه ضد الجهاد والمجاهدين، ومن يرى المصلحة الشرعية في تألف بعض أهل البدع لا يجوز أن يوصم بأنه يناصر البدعة ويخذل السنة.

ب) أن يقتضي الأمر البيان، وتكون مصلحة البيان أرجح من مصلحة السكوت، فليس كل ما يُعلم يقال.

وقد بوب البخاري رحمه الله في كتاب العلم من صحيحه: باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، وأورد فيه أثر علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[1].

ج) أن يكون بيان الحق بالأسلوب المناسب؛ وأن يسلك فيه صاحبه العدل ويجانب البغي والظلم، ويجب أن يعلم أن من مسؤوليته مع قول الحق وبيانه وحدة الصف والسعي لجمع الكلمة.

د) أن يكون بيان الحق من الشخص المناسب؛ فالقضايا الكبار ينبغي أن يتحدث فيها الأكابر، وتغليط الكبار لا ينبغي أن يجاهر به الأغمار.

هـ) حين يتم بيان الحق فلا ينبغي أن يستمر الناس في الخوض فيما لا أثر له إلا إيغار الصدور وإثارة الفرقة، وما أجدر الغيورين على مصالح الأمة أن يمسكوا عن الجدل واللغط.

رابعاً: الاعتدال في الحكم على الأخطاء:

لا يمكن أن يسلم البشر من الوقوع في الخطأ، ومهما بلغ الإنسان من العلم والتقوى والورع فهو عرضة للجهل والهوى والزلل؛ فالبحث عمن لا يزل ويقصِّر من البشر بحث عن محال.

كما أن الخطأ يتفاوت أمره؛ فثمة فرق بين الكبيرة والصغيرة، والكبائر تتفاوت

---

(١) أخرجه: مسلم في مقدمة الصحيح.

فيما بينها، والخطأ في المسائل الظاهرة ليس كالخطأ في المسائل الخفية، ومخالفة الدليل الصريح الصحيح ليست كمخالفة دليل محتمل أو فتوى عالم من العلماء.

وحين يترجح بيان خطأ عالم أو داعية فينبغي الاعتدال في التعامل مع هذا الخطأ، ومجانبة الغلو والشطط، وكثير من مواطن الافتراق والاختلاف تنشأ من مجانبة الاعتدال، فيشعر المنتقد أنه ما دام على الحق فهذا يسوِّغ له أن يقول ما يشاء وأن يفعل ما يشاء.

خامساً: الفصل بين الأشخاص والمواقف:

من الأمور التي ينبغي أن يعنى بها مريد الحق أن يكون حديثه عن الحق أو الباطل متجنباً الأشخاص ما لم يترتب على ذلك مصلحة شرعية.

> من الأمور التي ينبغي أن يعنى بها مريد الحق أن يكون حديثه عن الحق أو الباطل متجنباً الأشخاص ما لم يترتب على ذلك مصلحة شرعية.

ومن المعلوم أنه لا يلزم من وقوع الشخص في الخطأ تأثيمه أو تضليله: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهذا فصل الخطاب في هذا الباب؛ فالمجتهد المستدل من إمام وحاكم وعالم وناظر ومفت وغير ذلك: إذا اجتهد واستدل فاتقى الله ما استطاع كان هذا هو الذي كلفه الله إياه وهو مطيع لله مستحق للثواب إذا اتقاه ما استطاع ولا يعاقبه الله البتة خلافاً للجهمية المجبرة، وهو مصيب، بمعنى: أنه مطيع لله؛ لكن قد يعلم الحق في نفس الأمر، وقد لا يعلمه خلافاً للقدرية والمعتزلة»[1].

وقال أيضاً: «ولكن الأنبياء رضوان الله تعالى عليهم أجمعين هم الذين قال العلماء: إنهم معصومون من الإصرار على الذنوب. فأما الصديقون، والشهداء، والصالحون: فليسوا بمعصومين. وهذا في الذنوب المحققة. وأما ما اجتهدوا فيه: فتارة يصيبون،

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٩/ ٢١٦-٢١٧).

وتـارة يخطئـون. فـإذا اجتهدوا فأصابـوا فلهم أجـران، وإذا اجتهدوا وأخطـؤوا فلهم أجر علـى اجتهادهـم، وخطؤهم مغفور لهـم. وأهل الضـلال يجعلون الخطأ والإثـم متلازمين: فتـارة يغلـون فيهـم، ويقولـون: إنهـم معصومـون. وتـارة يجفون عنهـم، ويقولـون: إنهم باغـون بالخطأ. وأهـل العلم والإيـمان لا يُعصِّمـون، ولا يُؤثِّمون»[1].

سادساً: الحد من تسلط الأغمار:

كان لمحدودية وسـائل الاتصـال أثر في قصر انتشـار المقـولات على من اشـتهر بالعلم والـرأي في الغالـب، ومـع اتسـاع انتشـار هـذه الوسـائل صار مـن شـاء يكتب ما شـاء[2]، وأدى هـذا إلى تصـدر كثير مـن الأغـمار وحديثهـم فيـما لا يحسـنون، وصـارت لهـم جرأة عجيبـة عـلى الأكابر.

إن الأكابر ليسوا بمنأى عن النقد وبيان ما أخطؤوا فيه، لكن لا بد من حد أدنى لمن يتحدث عنهم وينتقدهم.

وأهل العلم والدعوة في الأمة يؤمل عليهم أن يشيعوا ثقافة احترام الأكابر، وضرورة تواضع الأصاغر، ولئن لم يرق لأحدهم قول، أو رأى الحق بخلافه فليدع هذا القول، لكن لا يتحدث مع الناس فيما لا يحسن.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٣٥/ ٦٩).

(٢) أفادني طالب في المرحلة الثانوية أنه صنف كتاباً في الرد على من يعتنون بالتخصصات غير الشرعية، وآخر في المرحلة نفسها أنه سيعقد درساً لبعض الطلاب يشرح لهم فيه كتاب (الفتوى الحموية) لشيخ الإسلام ابن تيمية! ولا ندري ماذا في المستقبل من النوادر والأوابد؟!.

سابعاً: الحذر من الانشغال بعيوب الناس:

المسلم مأمور بحفظ لسانه وصيانة أعراض المؤمنين، ومن أعظم الآفات أن ينشغل المرء بعيوب الآخرين، فكيف حين يكون من يُنشغل بعيوبهم من أهل الصلاح والعلم والدعوة، وممن يعرفون بالخير في الأمة؟ وجدير بمن لا يُعرف لهم تصنيف إلا في الرد والتعقيب أن يراجعوا أنفسهم ويتأملوا حالهم؛ فقد يكون مبدأ الأمر غيرة ومنتهاه جري وراء الهوى وتتبع الزلات والأخطاء.

ثامناً: توقير الأكابر:

لقد جاء الشرع بوضع الناس في منازلهم، ومن ثَمَّ فالخطأ منهم ليس كالخطأ من غيرهم؛ لذا كان لزاماً حفظ منزلتهم ومكانتهم، وحين يصدر الخطأ والزلل منهم فالأمر يختلف عمن دونهم.

قال سعيد بن المسيب رحمه الله: «ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه؛ فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله»[1].

وقال الذهبي: «ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له، قمنا عليه وبدعناه وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر، ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين؛ فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة»[2].

(١) الكفاية (ص١٠٢)؛ جامع بيان العلم وفضله: (٢/ ٨٢١).
(٢) سير أعلام النبلاء: (١٤/ ٤٠).

وقال ابن القيم رحمه الله: «ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدمٌ صالح وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل مأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته في قلوب المسلمين»[1].

تاسعاً: البعد عن تضخيم الخلاف:

لا ينشأ الخلاف من فراغ، وكثير من مواطن الصراع والافتراق بذرتها خطأ وتقصير، يغذيها هوى، أو غلو وتضخيم.

لا ينشأ الخلاف من فراغ، وكثير من مواطن الصراع والافتراق بذرتها خطأ وتقصير، يغذيها هوى، أو غلو وتضخيم.

ومن الناس من لا يجيد الاعتدال، فيضخم الخطأ، فيقع في البغي والعدوان، ويعتقد بالتلازم بين الغلظة على من أخطأ والحمية على الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فبالجملة فليس مقصودي بهذه الرسالة الكلام المستوفي لهذه المسألة؛ فإن العلم كثير؛ وإنما الغرض بيان أن هذه «المسألة» ليست من المهمات التي ينبغي كثرة الكلام فيها وإيقاع ذلك إلى العامة والخاصة حتى يبقى شعاراً ويوجب تفريق القلوب وتشتت الأهواء. وليست هذه (المسألة) فيما علمت مما يوجب المهاجرة والمقاطعة؛ فإن الذين تكلموا فيها قبلنا عامتهم أهل سنة واتباع، وقد اختلف فيها من لم يتهاجروا ويتقاطعوا كما اختلف الصحابة رضي الله عنهم والناس بعدهم في رؤية النبي ﷺ ربه في الدنيا؛ وقالوا فيها كلمات غليظة كقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. ومع هذا فما أوجب هذا النزاع تهاجراً ولا تقاطعاً. وكذلك ناظر الإمام أحمد أقواماً من أهل السنة في (مسألة الشهادة للعشرة

---

(١) إعلام الموقعين: (٣/ ٢٨٣).

بالجنة) حتى آلت المناظرة إلى ارتفاع الأصوات وكان أحمد وغيره يرون الشهادة ولم يهجروا من امتنع من الشهادة، إلى مسائل نظير هذه كثيرة»[1].

وقال أيضاً: «وهنا آداب تجب مراعاتها: منها: أن من سكت عن الكلام في هذه المسألة رؤية الكفار ربهم ولم يدع إلى شيء فإنه لا يحل هجره وإن كان يعتقد أحد الطرفين؛ فإن البدع التي هي أعظم منها لا يهجر فيها إلا الداعية دون الساكت؛ فهذه أوْلى. ومن ذلك: أنه لا ينبغي لأهل العلم أن يجعلوا هذه المسألة محنة وشعاراً يفضلون بها بين إخوانهم وأضدادهم؛ فإن مثل هذا مما يكرهه الله ورسوله. وكذلك ألا يفاتحوا فيها عوام المسلمين الذين هم في عافية وسلام عن الفتن، ولكن إذا سئل الرجل عنها أو رأى من هو أهل لتعريفه ذلك ألقى إليه مما عنده من العلم ما يرجو النفع به»[2].

وقال أيضاً: «وأما الاختلاف في (الأحكام) فأكثر من أن ينضبط، ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة، ولقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما سيدا المسلمين يتنازعان في أشياء لا يقصدان إلا الخير، وقد قال النبي ﷺ لأصحابه يوم بني قريظة: (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدركتهم العصر في الطريق فقال قوم: لا نصلي إلا في بني قريظة وفاتتهم العصر. وقال قوم: لم يُرِدْ منا تأخير الصلاة فصلوا في الطريق فلم يعب واحداً من الطائفتين). أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن عمر»[3].

(١) مجموع الفتاوى: (٦/ ٥٠٢).
(٢) مجموع الفتاوى: (٦/ ٥٠٣-٥٠٤).
(٣) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ١٧٣).

عاشراً: التفريق بين الخلاف في الرأي واختلاف القلوب:

لا بد أن يحصل الخلاف في الرأي وتتعدد الاجتهادات، لكن من واجب المسلم أن يحذر من أن يؤدي ذلك إلى اختلاف القلوب، وقد حذر النبي ﷺ أصحابه من ذلك؛ فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً قرأ آية، وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها، فجئت به النبي ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: «كلاكما محسن، ولا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[1].

حادي عشر: الخلاف لا بد منه:

يطمع بعض الغيورين والحريصين على وحدة الكلمة في قطع دابر الاختلاف والفرقة؛ لكنهم يتطلعون إلى نفي الخلاف في الرأي، ويسعون إلى الاتفاق على ما لا يمكن الاتفاق عليه.

وإذا كنا نريد وحدة الصف وجمع الكلمة فلا بد من استيعاب تعدد الآراء والاجتهادات فيما يسع فيه ذلك بل لا بد أن نتجاوز ذلك إلى استيعاب تعدد المدارس الفكرية كما تعددت المدارس الفقهية، ولا يمكن أن يكون الناس نسخة واحدة.

وبدلاً من السعي لتذويب ما لا يمكن تذويبه من الفوارق ينبغي أن يتركز الأمر على استجلاء الثوابت، وضبط الاجتهادات وتسديد المسيرة.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٢١٧).

ثاني عشر: فتح المجال للحوار وإشاعة أخلاقياته:

> **مما يقلل الاختلاف والصراع أن يفتح المجال للحوار، وأن يسود بين شباب الصحوة ودعاتها جو الحوار؛ وبدون الممارسة العملية سيبقى الحديث عن آدابه وأخلاقياته حديثاً نظرياً.**

إن مما يقلل الاختلاف والصراع أن يفتح المجال للحوار، وأن يسود بين شباب الصحوة ودعاتها جو الحوار؛ وبدون الممارسة العملية سيبقى الحديث عن آدابه وأخلاقياته حديثاً نظرياً.

ومن تأمل واقع السلف رأى ذلك جلياً؛ فكانوا يختلفون ويسود بينهم الحوار والمناظرة والجدل بالتي هي أحسن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٩) وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين»[١].

ثالث عشر: سعي المصلحين لرأب الصدع وتدارك الخلاف:

من المهم حين يشيع خلاف تبدو منه بوادر الافتراق أن يسعى المصلحون للأخذ بزمام المبادرة، فيبذلوا وسعهم في الإصلاح ورأب الصدع قبل أن يتأصل الخلاف وتطول الخصومة، ومما ينبغي على المصلحين مراعاته:

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ١٧٢).

أ) أن يكفوا عن الخوض فيما لا يليق بهم أن يخوضوا فيه، ويكونوا بذلك قدوة لغيرهم، وفي كل موطن من مواطن الخلاف والصراع تتميز فئة ممن رزقهم الله العلم والبصيرة فيمسكون عن الخوض في الفتن؛ فما أجمل أن يقتدي الدعاة وطلاب العلم بأمثال هؤلاء.

ب) أن يحذروا من الانسياق وراء المتحمسين والمندفعين فيما لا يحقق المصلحة؛ فكم رأينا من مواقف دفع فيها الشبابُ بعضَ أهلِ العلم والدعاة إلى مواقف لا تليق بمن هو دونهم فضلاً عن أمثالهم.

ج) أن يسعوا للإصلاح بين المتخاصمين بأنفسهم، وقد كان سيد الخلق ﷺ معيناً بذلك؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي! فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة؛ فلما أتاه النبي ﷺ فقال: إليك عني! والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: واللهِ لَحِمارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتمه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها أنزلت: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩][1].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني عمرو بن

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٦٩١)؛ ومسلم رقم (١٧٩١).

عوف كان بينهم شيء فخرج رسول الله ﷺ يصلح بينهم في أناس معه فحبس رسول الله ﷺ وحانت الصلاة....»[1].

ويعظم سعيد بن المسيب رحمه الله شأن الإصلاح فيقول: «ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى! قال: إصلاح ذات البين، وإياكم والبغضة؛ فإنها هي الحالقة»[2].

وفي حادثة الإفك انشغل النبي ﷺ بالإصلاح بين المسلمين، وترك ما كان يريد الحديث عنه من أمر عظيم ألا وهو عِرْضُه ﷺ، وترك الحديث عن اتهام أحد أصحابه للآخر بالنفاق؛ ففي حديث الإفك: «فقال رسول الله ﷺ: من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله! أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية فقال: كذبتَ لَعَمْرُ الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير فقال: كذبتَ لَعَمْرُ اللهِ واللهِ لنقتلنه؛ فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان: الأوس والخزرج؛ حتى هموا ورسول الله ﷺ على المنبر، فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت»[3].

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٢٣٤)؛ ومسلم رقم (٤٢١).
(٢) أخرجه: مالك في الموطأ رقم(١٦٧٦).
(٣) أخرجه: البخاري رقم (٢٦٣٧)؛ ومسلم رقم (٢٧٧٠).

وكان لأهل السنة رحمهم الله اعتناء بذلك؛ فها هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يكتب لطائفة من إخوانه الذين تجاوزوا في ذلك فيقول: «والذي أوجب هذا الكلام أن وفدكم حدثونا بأشياء من الفرقة والاختلاف بينكم حتى ذكروا: أن الأمر آل إلى قريب المقاتلة؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والله هو المسؤول أن يؤلف بين قلوبنا وقلوبكم، ويصلح ذات بيننا، ويهدينا سبل السلام ويخرجنا من الظلمات إلى النور ويجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ويبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا ما أبقانا، ويجعلنا شاكرين لنعمه مثنين بها عليه قابلين لها ويتممها علينا. وذكروا أن سبب ذلك الاختلاف في (مسألة رؤية الكفار ربهم) وما كنا نظن أن الأمر يبلغ بهذه المسألة إلى هذا الحد؛ فالأمر في ذلك خفيف... ثم ذكر الجواب»[1].

أسأل الله أن يمن على عباده المؤمنين بالاجتماع، وأن يجنبهم مواطن الزلل والفرقة والخصومة؛ إنه سميع مجيب، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ١٧٦-١٧٧).

وسائل وحدة الصف

١ إدراك أهمية وحدة الصف

٢ تقوية الأواصر والصلات

٣ الموازنة بين قول الحق ووحدة الصف

٤ الاعتدال في الحكم على الأخطاء

٥ الفصل بين الأشخاص والمواقف

٦ الحد من تسلط الأغمار

٧ الحذر من الاشتغال بعيوب الناس

٨ توقير الأكابر

٩ البعد عن تضخيم الخلاف

١٠ التفريق بين الخلاف في الرأي واختلاف القلوب

١١ الخلاف لا بد منه

١٢ فتح المجال للحوار وإشاعة أخلاقياته

١٣ سعي المصلح لرأب الصدع وتدارك الخلاف



معالم في طريق الوفاق

أحمد بن عبدالرحمن الصويان



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وبعد:

فعندما تتأمَّلُ واقعَ الدعوةِ والدعاةِ في العالم الإسلامي، سوف تقفُ على مشاهدَ وبرامجَ رائعةٍ تسرُّ الخاطر، لكنكَ في الوقتِ نفسهِ سوفَ تلاحظُ أنَّ من الأدواءِ المزمنةِ التي أثقلت الدعوةَ وأنهكت الدعاةَ، ظاهرةَ التفرُّقِ والتنازعِ والتدابرِ بين الدعاة!

وبعضُ هذا التنازع ناتجٌ عن اختلافاتٍ منهجيةٍ وعلميةٍ لها حظٌّ من الأثرِ أو النظر، ومثل هذا النوعِ ينبغي أن يعالَجَ برؤيةٍ علميةٍ وأفق دعوي بعيداً عن التهويشِ والجدلِ والمكايدة!

وكثيرٌ من تلكَ الاختلافاتِ تحركُها الأهواء، ويسودُها البغي، وتذكيها العصبياتُ الحزبيةُ والمشيخيَّة.. وما ذاقَ حلاوةَ الدعوةِ مَنْ تعلَّقَ قلبُه بمَغْنَم شخصيٍّ، وعمَّر حياتَه الدعويةَ بالتهارش والقيل والقال.. وما ذاقَ حلاوةَ الدعوةِ مَنْ كان همَّه الانتصارُ للجماعة أو الحزب على حساب الحق!

قلِّب بصرَك أنَّى شئتَ في محاضن العلم والدعوة، وستجد ظاهرةَ التوتر والتعانف والاحترابِ الداخلي تبرز لك بجلاء. وهذه بلا شك بيئةٌ خصبةٌ للفشل وذهابِ الريح وانتشارِ الوهن واستهلاكِ الطاقات، كما أنها بيئة خصبة لتمرير كثيرٍ من دسائسِ المناوئين ومؤامراتِهم.

واقعٌ مؤلمٌ بلا شك!

ما التقيتُ أحداً من العلماءِ أو الدعاة إلا رأيتُه يألَم لهذا التفرُّق، ويسوق لك النصوص التي تأمر بالاجتماع وتذم الفرقة، لكن قلَّ أن تجدَ مبادراتٍ عمليةً فاعلةً لرأبِ الصدع ولمِّ الشمل، فهذا يُعْرِض وذاك يُكابر؛ ليستمرَّ الخلاف، ويصَّاعد في دوائرِ الأتباع!

وإن من القواعد الكلية المقررة عند أهل العلم: وجوب النظر في مآلات الأفعال. وكل ذي دين وعقل ينظر في واقع الدعاة يرى أنَّ الفشل وذهاب الريح من أشد مآلات وعواقب الفرقة التي تعصف بالأمة.

وإذا كان النبي ﷺ يحذر من الاختلاف في صفوف الصلاة، ويعده سبباً لاختلاف القلوب[1]، فكيف في صفوف الدعوة والبلاغ ومجاهدة الأعداء؟! بل إن من لطائف الشمائل النبوية: أن التفرق وترك الاجتماع على الطعام -وهو أمر دنيوي صرف- سبب لزوال بركته[2]، فكيف بالتفرق في شأن الدعوة والإصلاح واستعادة نهضة الأمة؟!

وفي ذلك إشارة مهمة إلى أنَّ الاجتماع والوفاق بين المسلمين مقصد عظيم من مقاصد الشرع، يبني الحياة بأبعادها المختلفة -الاجتماعية والدعوية والسياسية- على هذا الأساس.

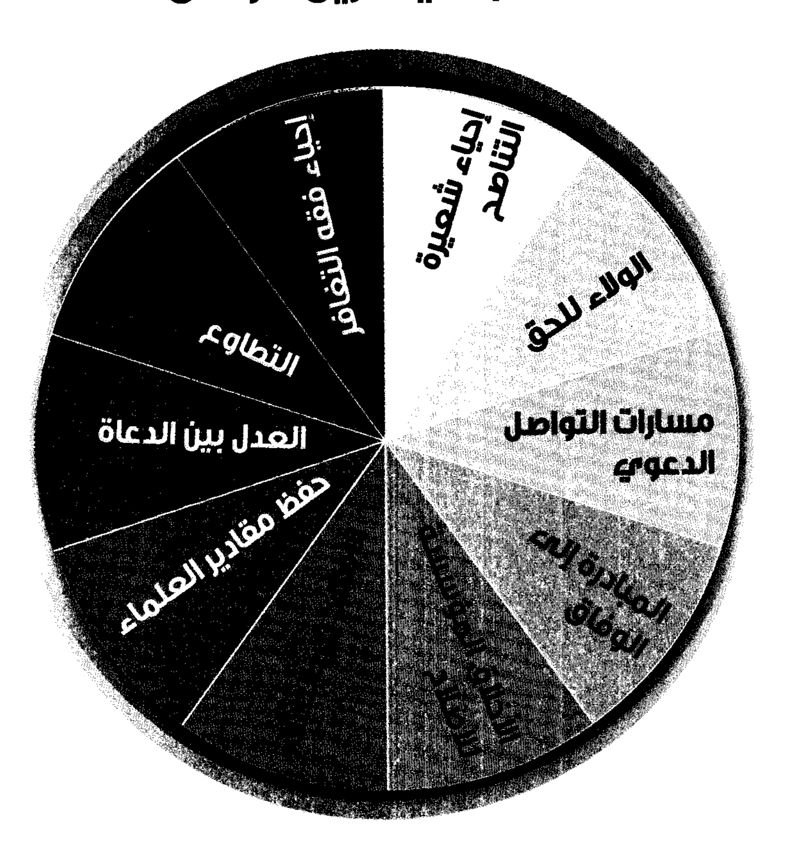
وفي هذه الورقة المختصرة أضع بين يدي القراء الكرام (معالم في طريق الوفاق) أرجو أن تكون محفزاً للائتلاف الدعوي، وسبيلاً للاجتماع والتعاون.

---

(١) عن أبي مسعود البدري -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «استووا ولا تختلفوا؛ فتختلف قلوبكم». أخرجه: مسلم في كتاب الصلاة، رقم (١٠٠٠).

(٢) عن وحشي بن حرب -رضي الله عنه- أنهم قالوا: يا رسول الله! إنَّا نأكل ولا نشبع، قال:« فلعلكم تأكلون متفرقين؟» قالوا: نعم، قال: « فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه، يبارك لكم فيه». أخرجه: ابن ماجة في كتاب الأطعمة، رقم (٣٢٨٦). وأبو داود في كتاب الأطعمة، رقم (٣٧٦٦). وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (٣١٩٩)، وفي السلسلة الصحيحة، رقم (٦٦٤).

معالم في طريق الوفاق



المعلم الأول: الولاء للحق:

ينبغي أن يتربى الدعاة على تعزيز الولاء للحق والاعتصام بالحجة والبرهان، وأن يكون مناط الولاء والنصرة والتعاون رضا الله - عز وجل -.

ومن الآفات التي ينبغي الحرص على علاجها ودرئها أن يُعقد الولاء والتعاون على الأساس الحزبي أو المشيخي؛ وإن كان على حساب الحق، وفي هذا يقول النبي ﷺ: (من نصر قومه على غير الحق؛ فهو كالبعير الذي ردي وهو ينزع بذنبه)[1]. وفي تفسير قوله -تعالى-: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] قال الإمام ابن القيم: «جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون، ورؤوس أموالهم التي بها يتاجرون»[2]. والتعصب للتجمعات الدعوية أشبه ما يكون بالتعصب المذهبي الذي تواتر تحذير الأئمة منه.

إن التنادي والتناصر باسم الجماعة أو الحزب لون من ألوان الدعاوى الجاهلية التي حذر منها رسول الله ﷺ، واشتدَّ نكره عليها، فعن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قال: كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فسمَّعها الله رسوله ﷺ، قال: (ما هذا؟) فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجل من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار!

---

(١) أخرجه: أبو داود في كتاب الأدب رقم (٥١١٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، وفي صحيح الجامع رقم (٦٥٧٥).

(٢) إعلام الموقعين: (١/ ٧).

وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فقال النبي ﷺ: (دعوها فإنها منتنة)[1].

ومشكلة بعض الإسلاميين اختزاله للأمة في جماعته أو شيخه، واعتقاده بأن ما عليه هو الحق الذي لا حق غيره، وأنَّ جماعته أصوب منهجاً وطريقاً، وأسلم عقيدة فكراً، هكذا بإطلاق، ولذا فهو ينقم على الآخرين انحرافهم وتساهلهم و...، ومشكلة آخرين من الإسلاميين اعتقاده بأن جماعته أعمق فكراً، وأوسع أفقاً، وأحسن تجربة.. وهكذا من الإطلاقات التي تحجب الإنسان عن رؤية عيوبه من جهة، وتحرمه من حسنات الآخرين، من جهة أخرى.

والمخرج من ضيق العصبية وولاءاتها الضيقة، وما تجره من مناكفات وصراعات، لا يكون إلا بالانطلاق إلى سعة التجرد للحق ورحابة الاعتصام بالدليل والحجة.

وقد رسم عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- المنهاج الحق بقوله: «من جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً، ومن أتاك بباطل فاردده وإن كان حبيباً قريباً»[2]. وأكد ابن القيم هذا المنهاج بقوله: «عادتنا في مسائل الدين كلها، دقها وجلها، أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نتعصب لطائفة على طائفة، بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق، ونخالفها فيما معها من خلاف الحق، لا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة»[3].

---

(١) أخرجه: الطبراني في المعجم الكبير رقم (٨٥٣٧).
(٢) أخرجه: البخاري في كتاب رقم (٤٩٠٧).
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين: (ص ٣٩٣).

فالحق ينصر ويقبل من كل من قاله كائناً من كان، كما أن الباطل يرد على صاحبه كائناً من كان دون اعتبار للعصبيات والأهواء الحزبية والمشيخية.

إن تلك التجمُّعاتِ الدعوية في العالم الإسلامي- الجماعاتُ والأحزابُ والجمعياتُ والمنظماتُ- تمثِّل أزمةً حقيقيةً في تنازعها وافتراقها، لكن ألا يمكن أن تتحوَّل الأزمةُ إلى فرصةٍ لتحقيق التنوُّعِ الإيجابي والتكاملِ الدعوي، والحفاظ على معاقد الولاء وأواصر الأخوّة، ثم ندير خلافاتنا بمنهج يجمعُ ولا يُفرِّق، ويُؤلِّف ولا يُشتِّت، ويُصلح ولا يُفسد؟!

مشكلة بعضهم ظنه أنَّه لا طريق له لتحقيق أهدافه إلا بإقصاء الآخرين وتهميشهم، أو توظيفهم في مشروعه ليكونوا تحت عباءته، وما درى أنَّ كثيراً من النزاع يمكن أن يزول أو تخف حدته إذا أدركنا أنَّ الساحة الدعوية تتسع لكل الجهود المخلصة.

هذه التجمُّعاتُ الدعوية وسيلة لنصرة الدين فلا يجوز أن يقدم الولاء لها على الولاء للأمة، ولا يجوز أن ينصرف الدعاة بمماحكاتها عن الطريق المستقيم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. و مشكلة بعضهم ظنه أنَّه لا طريق له لتحقيق أهدافه إلا بإقصاء الآخرين وتهميشهم، أو توظيفهم في مشروعه ليكونوا تحت عباءته، وما درى أنَّ كثيراً من النزاع يمكن أن يزول أو تخف حدته إذا أدركنا أنَّ الساحة الدعوية تتسع لكل الجهود المخلصة. والمنطلق الحزبي إذا غلب على التربية الدعوية؛ فقدت الدعوة حلاوتها وانصرف الدعاة عن مقاصدهم الربانية وأصبحت البرامج والأنشطة الدعوية التفصيلية أداة لتنمية الفرقة واستثارة الصراع والتهارش!

ولعل الداعية الذي تسيطر عليه الولاءات الحزبية على حساب الولاء للحق كالمسافر الذي فقد بوصلته فهو يتيه في الصحراء، أو كالمسافر يملأ جرابه رملاً ينقله ،يثقل مسيرته ولا ينفعه[1].

المعلم الثاني: إحياء شعيرة التناصح:

من الأوليات الدعوية التي تعزز الوفاق:

إحياءُ شعيرةِ التناصح والتواصي بالحق، بالرحمةِ والإحسان، لا بالتشفِّي والانتقام؛ فالنصيحةُ المشفِقَةُ آيةٌ من آياتِ المحبةِ والولاء بين المؤمنين، والسكوتُ عن الخطأ ليس مطلوباً، بل يزيد من شِقَّةِ الخلافِ ولا يعالجها، قال -تعالى-: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

ومن علامات النصيحة المخلصة:

١) **أن يكون الرد أو النقد بنية التقويم والإرشاد، وليس الفضيحة والإسقاط!** وفي هذا السياق يقول ابن تيمية: «الرد على أهل البدع من الرافضة وغيرهم إن لم يقصد منه بيان الحق وهدي الخلق ورحمتهم والإحسان إليهم؛ لم يكن عمله صالحاً، وإذا غلَّظ في ذمِّ بدعة ومعصية كان قصده بيان ما فيها من الفساد ليحذرها العباد، كما في نصوص الوعيد وغيرها. وقد يهجر الرجل عقوبة وتعزيراً والمقصود بذلك ردعه وردع أمثاله، للرحمة والإحسان لا للتشفي والانتقام»[2].

---

(١) هذه استعارة من الإمام ابن القيم الذي شبه العمل بغير إخلاص ولا اقتداء بالمسافر الذي يملأ جرابه رملاً ينقله ولا ينفعه! الفوائد (ص ٦٧).

(٢) منهاج السنة النبوية: (٥/ ٢٣٩ - ٢٤٠).

وقد أشار أبو نصر السجزي (ت: ٤٤٤هـ) إلى أنَّ المتكلم في السنة إذا أراد اتباعها فإنه يُعان على خصومه، أما من أراد المغالبة فربما غلب[١]!

٢) **الرد باللين والرحمة:**

فلن تحقِّق النصيحة مقصودها الشرعي إذا تزيَّنت بلباس الشدَّة والقسوة، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (من يحرم الرفق يحرم الخير)[٢]. وما بُعث رسول الله ﷺ إلا ليبسط الرحمة في العالمين، قال -تعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فرسول الله أرحم الخلق بالخلق، وهكذا ينبغي أن يكون ورثته وأتباعه وحملة رسالته.

وإذا كان التراحم بين عامة المسلمين ممَّا أمر به الشارع الحكيم وتواترت به النصوص، فإن التراحم بين الدعاة والمصلحين من باب أولى حتى لو اختلفوا في بعض المسائل الاجتهادية، ولنا في الصحابة -رضي الله عنهم- أسوة حسنة، فقد وصفهم ابن تيمية بقوله: «كانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين»[٣]. ونقل الشاطبي وصف بعض المفسرين للخلاف بين الصحابة -رضي الله عنهم- بقوله: «وكانوا مع هذا أهل مودة وتناصح، أخوة الإسلام فيما بينهم قائمة»[٤].

---

(١) الرد على من أنكر الصوت والحرف: (ص ٢٣٥).
(٢) أخرجه: مسلم في كتاب البر والصلة رقم (٢٥٩٢).
(٣) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ١٧٢).
(٤) الموافقات: (٥/ ١٦٣).

وأحسب أن ضعف أخلاق التراحم الدعوي بين الدعاة والتجمعات الدعوية، من أعظم أسباب التعانف والقسوة والتدابر. والنصيحة التي يظهر أثرها على النفس ليست الأرفع صوتاً، أو الأغلظ عبارة وجرحاً، ولكنها النصيحة المشفقة التي تنفذ إلى القلوب بعطف ولين!

ضعف أخلاق التراحم الدعوي بين الدعاة والتجمعات الدعوية، من أعظم أسباب التعانف والقسوة والتدابر. والنصيحة التي يظهر أثرها على النفس ليست الأرفع صوتاً، أو الأغلظ عبارة وجرحاً، ولكنها النصيحة المشفقة التي تنفذ إلى القلوب بعطف ولين!

٣) التواضع وتقدير المخالف:

من المداخل النفسية التي تفسد النصيحة وتقلل من قبولها: تقديمها بلغة التعالي والأستاذية والإدلال على المخالف، فالتعالي سبب من أسباب البغي، فقد قال النبي ﷺ: «إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا، ولا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد»[1].

وهذا الخلق قد يدفع الطرف الآخر إلى الانتصار للنفس والمكابرة والمعاندة، وقد أشار إلى هذا المعنى أبو حامد الغزالي، حيث نقل عنه الشاطبي قوله: «أكثر الجهالات إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جهلة أهل الحق، أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلال، ونظروا إلى الخصوم بعين التحقير والازدراء؛ فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في قلوبهم الاعتقادات الباطلة»[2].

(١) أخرجه: مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم (٢٨٦٥).
(٢) الاعتصام: (٢/ ٢٣٠).

المعلم الثالث: إحياء فقه التغافر والتماس العذر:

إحياءُ فقه التغافرِ والتماسِ العذرِ وحُسن الظن وحفظ السابقة ومعرفة الفضل لأهله.. ونحوها من أخلاق ذوي المروءات، يؤسس لقاعدة متينة من الوفاق والتواصل الإيجابي الذي يبني ولا يهدم، ويدرأ النزاعات على بساط من الإخاء والمحبة، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٨٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ونحن أحوج ما نكون إلى إحياء منهج الصحابة - رضي الله عنهم -؛ فقد سطروا أروع الأمثلة في سلامة الصدر والتغافر وسعة الأفق والتماس العذر لأهله، وتأمّل هذه القصة التي رواها الزهري فقال: «حدَّثني عروة أنَّ المسور بن مخرمة أخبره أنه وفد على معاوية، فقضى حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مسور! ما فعل طعنك على الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسن. قال: لا والله! لتكلِّمني بذات نفسك بالذي تعيب عليَّ. قال مسور: فلم أترك شيئاً أعيبُه عليه إلا بيَّنتُ له. فقال: لا أبرأ من الذنب. فهل تعُدُّ لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامَّة، فإنَّ الحسنة بعشرة أمثالها، أم تعدُّ الذنوب وتترك المحاسن؟ قال: ما تُذكر إلا الذنوب. قال معاوية: فإنَّا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه؛ فهل لك يا مسور ذنوبٌ في خاصتك تخشى أن تهلك إن لم تغفر؟ قال: نعم. قال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحقَّ مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أُخيَّر بين أمرين، بين الله وبين غيره، إلا اخترتُ الله على ما سواه، وإني على دين يُقبَل فيه العمل ويُجزَى فيه بالحسنات، ويجزَى فيه

بالذنـوب، إلا أن يعفـو الله عنهـا. قـال: فخصمنـي. قال عروة: فلم أسـمع المسـور ذكـر معاويـة إلا صـلَّى عليه»(١).

فتأمّل الإنصاف وسرعة الفيء لأولئك الأفـذاذ - رضي الله عنهم -، ولا شـك في أنَّ التغافـر وسـلامة الصـدر يحتـاج إلى ترويـض ومجاهـدة ومغالبة للنفـس، فمن يقـوى عـلى ذلـك إلا أصحـاب العزائـم؟! قـال الله - تعـالى-: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشـورى: ٤٣].

من العسير جداً أن يتم التعاون أو التنسيق بين الدعاة والتجمعات الدعوية في أجواء من التشنج والتوتر، كما أنه من العسير أيضاً أن يتحقق التواصل والتكامل والتوافق الدعوي على قاعدة هشة من علائق الأخوة التي تستبطن الأثرة وسوء الظن وضعف الثقة!

من العسير جداً أن يتم التعاون أو التنسيق بين الدعاة والتجمعات الدعوية في أجواء من التشنج والتوتر، كما أنه من العسير أيضاً أن يتحقق التواصل والتكامل والتوافق الدعوي على قاعدة هشة من علائق الأخوة التي تستبطن الأثرة وسوء الظن وضعف الثقة!

إنَّ سوء الظن آفة قاطعة تفرز عادة عقدة التوجس والقلق والنفرة من الطرف الآخر، وتدفع المرء لتغليب الاتهام والقطيعة!

وفي المقابل نرى حسن الظن والتماس العذر من أعظم ما يبني الوفاق والألفة، وإذا أدركنا أن حسن الظن ليس مجرد ممارسة شكلية أو مجاملة اجتماعية؛ بل عبادة قلبية يثاب عليها المرء؛ علمنا حاجتنا الماسة إلى تعزيزها وتربية الشباب عليها.

---

(١) سير أعلام النبلاء: (٣/ ١٥١)؛ وانظر تخريج المحقق.

المعلم الرابع: التطاوع:

ما أجمل أن يسعى الدعاة لإشاعة ثقافة التطاوع لقول النبي ﷺ: (تطاوعا ولا تختلفا)[1]، فالتطاوعُ يَدلُّ على صفاءِ النفس وقوةِ الشخصية وسِعَةِ الأفق، ولا يتحقق إلا بقدر كبير من السماحة والاستعداد الأخلاقي للتوافق.

والتطاوعُ لا يعني التنازلَ عن الحقِ أو القبولَ بالباطل، أو السكوت عن الأخطاء، لكنه يعني الحرص على الوفاق والاجتماع، والملاينة واتساعَ الصدرِ للاجتهادات السائغة وترك الفاضل من أجل اجتماع الكلمة، وتقديم المصالح العامة على الخاصة، والكبرى على الصغرى، وسعة الأفق في احتواء النزاعات. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية قاعدة كلية عظيمة في هذا الباب فقال: «ويسوغ أيضاً ترك الإنسان الأفضل لتأليف القلوب واجتماع الكلمة، خوفاً من التنفير عما يصلح»[2].

إنَّ من الآفات المزمنة التي لا تكاد تخطئها العين: شيوع روح المكابرة والاستعلاء والتعنّت والاعتداد بالرأي، والتهوين من قدر الآخرين علماً أو عملاً؛ وهذه أسباب تعوق التطاوع وتقطع سبيل الملاينة، وتؤكد حاجتنا الماسة إلى إعادة بناء منظومتنا التربوية والأخلاقية.

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الجهاد والسير رقم (٣٠٣٨)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير رقم (١٧٣٣).

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٢/ ٤٣٦). وانظر: (٢٢/ ٤٠٧).

> **في كل تيار دعوي فئام من ذوي الحلم والسماحة ولين الجانب، ممَّن يألف ويؤلف؛ وهؤلاء هم الجسر الحقيقي للتطاوع، يبنون بأخلاقهم العالية بساط التوافق والتواصل البناء.**

ولعل هذا من أعظم أسباب إخفاق مشاريع التنسيق والتعاون بين الدعاة والتجمعات الإسلامية؛ فالعلاقة المتينة المستمرة لا تستقيم إلا بالسماحة والتطاوع. في كل تيار دعوي فئاماً من ذوي الحلم والسماحة ولين الجانب، ممَّن يألف ويؤلف؛ وهؤلاء هم الجسر الحقيقي للتطاوع، يبنون بأخلاقهم العالية بساط التوافق والتواصل البناء، وقد وصفهم النبي ﷺ بقوله: (المؤمنون هينون لينون، مثل الجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن سيق انساق، وإن أنخته على صخرة استناخ)[1].

وأذكر أنني استشهدت بهذا الحديث النبوي العظيم الذي يرسم للمؤمنين منهاجاً للوفاق والتطاوع، فاستدرك أحدهم عليَّ.. قائلاً: كأنك تريد أن يكون أحدنا ألعوبة أو ذيلاً لغيره بلا شخصية أو استقلالية! فتأمل كيف يوجه بعضهم فقهه السقيم في التعنّت وافتعال الخصومة؟!

(١) أخرجه: العقيلي في الضعفاء الكبير رقم (٢١٤)، وحسنه لغيره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٩٣٦).

المعلم الخامس: العدل بين الدعاة:

من المسلمات الشرعية والعقلية التي يجب ترسيخها في صفوف الدعاة:

العدلُ في الأقوالِ والأعمالِ والأحكامِ، مع كلِّ أحدٍ وفي كلِّ حال؛ فالمخالفة الحزبيةُ لا تجيزُ البغيَ أو الجورَ، قال الله -تعالى-: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، وقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

كثيراً ما ينظرُ بعضُ الدعاةِ بمنظارَين: منظارٌ يضخِّمُ فيه نفسَه وجماعَته ومَنْ يحب، ومنظارٌ يُقزِّمُ فيه الآخرين ويبخسُهم حقوقَهم.

ولا شك أنَّ العدل مع الموافق والمخالف من القيم العزيزة خاصة هذا العصر، فكثيراً ما ينظرُ بعضُ الدعاةِ بمنظارَين: منظارٌ يضخِّمُ فيه نفسَه وجماعَته ومَنْ يحب، ومنظارٌ يُقزِّمُ فيه الآخرين ويبخسُهم حقوقَهم، والموضوعيةُ في قراءةِ الواقعِ الدعوي أمرٌ عزيزٌ لا يسمو إليه إلا أهلُ الصدقِ والورعِ! ومن اللفتات النفسية المهمة قول ابن عقيل: « رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم إلا العجز، ولا أقول العوام بل العلماء»[1].

وقد أشار ابن تيمية إلى ملحظ مهم قلَّ من يتنبه إليه؛ فقال: «الحكم بين الناس في عقائدهم وأقوالهم، أعظم من الحكم بينهم في مبايعهم وأموالهم»[2].. فهل يدرك هذا من يتهوك في أعراض العلماء والدعاة ويتجرأ في إسقاط ومخاصمة التجمعات الدعوية؟!

وتأمل كيف يرسم ابن القيم منهاج أهل العلم والورع بقوله: « ورثة الرسل منصبهم

(١) الفروع: (٣/ ٢٢).

(٢) درء تعارض العقل والنقل: (٧/ ٤٦٤).

العدل بين الطوائف، وألا يميل أحدهم مع قريبه وذوي مذهبه وطائفته ومتبوعه؛ بل يكون الحق مطلوبه، ويسير بسيره، وينزل بنزوله، ويدين بدين العدل والإنصاف»[1].

إن الائتلاف بين الدعاة يتطلب أفقاً واسعاً، ونظراً عميقاً، وبُعداً عن المحاباة أو الجور، قال الله تعالى: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ولا يتحقق ذلك القسط إلا بسلامة القصد، والتجرد من الأهواء، والحذر من محاباة أحد الأطراف؛ ولهذا عندما أمر الله -عز وجل- بإصلاح ذات البين صدَّر ذلك بالأمر بالتقوى، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]؛ لأن من اتقى الله - عز وجل - حق التقوى حَسُن قصده، وتحرى الإنصاف، وترفّع عن الخصومة والمنازعة. ومن عَلِم الله - عز وجل - منه التجرد في الإصلاح؛ أعانه وسدّده ورفع قدره، قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وقال سبحانه: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥].

---

(١) إعلام الموقعين: (٣/ ١٢٧).

المعلم السادس: حفظ مقادير العلماء والدعاة:

حفظُ مقادير العلماء والدعاة والجمعيات والتجمعات الدعوية واجبٌ شرعيٌّ امتثالاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وهذه الآية نزلت في سياق آيات الطلاق، حثاً للزوجين على حفظ الودِّ بينهما، فالاختلاف ينبغي أن لا يؤدي إلى نسيان الفضل السابق. وهذه قاعدة عامة في كل العلاقات الاجتماعية بين الناس. فلا يجوز أن تسقط مكانة العلماء والدعاة أو تهدر محامدُهم لزلة عابرة أو فلتةٍ عارضة، فالعبرةُ بكثرة المحاسن، والمنصفُ كما قال الإمام ابن رجبٍ: «مَن اغتفر قليلَ خطأ المرء في كثير صوابه»[1]. ولو أننا أسقطنا العالم أو الداعية بسبب خطأ وقع فيه، هل سيبقى لنا أحدٌ من علمائنا أو دعاتنا في القديم أو الحديث؟! وتأمل حكمة الإمام ابن القيم إذ يقول: «لو كان كل من أخطأ أو غلط تُرك جملة وأُهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات والحكم، وتعطلت معالمها»[2].

وثبت في الحديث الصحيح: (لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر)[3]، وقد أشار السعدي وغيره إلى أن هذه قاعدة عامة في العلاقات الاجتماعية جميعها[4].

---

(١) القواعد: (٣).

(٢) مدارك السالكين: (٢/ ٣٩).

(٣) أخرجه: مسلم في كتاب الرضاع رقم (١٤٦٩).

(٤) انظر: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخبار (ص ١٠١-١٠٢).

وتتبُّعُ العثرات وإشاعةُ الزلات وكتمانُ الصالحات؛ آفةٌ خطيرةٌ تدل على ضعف الديانة وقلة المروءة، وقد استعاذ النبي ﷺ من: (خليل ماكر عينه تراني وقلبه يرعاني، إذا رأى حسنة دفنها، وإذا رأى سيئة أذاعها)[1].

> **تتبُّعُ العثرات وإشاعةُ الزلات وكتمانُ الصالحات؛ آفةٌ خطيرةٌ تدل على ضعف الديانة وقلة المروءة، وقد استعاذ النبي ﷺ من: (خليل ماكر عينه تراني وقلبه يرعاني، إذا رأى حسنة دفنها، وإذا رأى سيئة أذاعها).**

ولهذا؛ توجَّعَ الأئمة قديماً وحديثاً من صنيع هؤلاء، فها هو ذا الإمام الشعبي يقول: (لو أصبت تسعاً وتسعين، وأخطأت واحدة، لأخذوا الواحدة وتركوا التسع والتسعين)[2]. وعندما تتبّع الحميدي بعض أخطاء الشافعي عتب عليه أحمد ابن حنبل قائلاً: «تمرُّ مائة مسألة يخطئ خمساً أو عشراً، اترك ما أخطأ وخذ ما أصاب»[3].

إنَّ تربيةَ الشباب على التخوّض في أعراضِ الدعاةِ وتتبُّعِ زلاتهم؛ من الآفات التي أثقلت المسيرةَ الدعوية وأوجدت بيئة خصبة للتعانف اللفظي، والتفرق والتنازع لأي سبب عارض! ولهذا أقول للشباب: إذا رأيت الداعيةَ ناصحاً لإخوانه، ينأى بنفسه عن الجدلِ ويتورع عن القيل والقال ويحبس لسانه عن فضول المنازعات وتتبع العثرات؛ فاعلم أنه صاحبُ دين وعقل ومروءة، فالزم صحبته.

---

(١) أخرجه: الطبراني في الدعاء، وقال الألباني: إسناده جيد، السلسلة الصحيحة رقم (٣١٣٧).
(٢) حلية الأولياء: (٤/ ٣٢٠-٣٢١)؛ وسير أعلام النبلاء: (٤/ ٣٠٨).
(٣) آداب الشافعي ومناقبه للرازي: (ص ٤٤).

المعلم السابع: الإصلاح بين الدعاة:

الإصلاح بين الناس من أعظم القربات التي تواترت النصوص الشرعية على تأكيدها والحثّ عليها والتحذير من عواقب مخالفتها، ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وأمر النبي ﷺ بالإصلاح، وحذَّر من تركه، فعن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة)[١].

وقال ﷺ: (صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا، وقرب بينهم إذا تباعدوا)[٢].

وأكدت سنة النبي ﷺ العملية السعيَ في الإصلاح، ومن ذلك: أنَّ أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: (اذهبوا بنا نصلح بينهم)[٣].

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٢٧٥٠٨)؛ والترمذي في كتاب صفة القيامة رقم (٢٥٠٩)؛ وأبو داود في كتاب الأدب رقم (٤٩١٩)؛ وصححه الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

(٢) أخرجه: البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٥٤٤)؛ والبزار في كشف الأستار رقم (٢٠٦٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٨٣) عن إسناد البزار: فيه عبد الرحمن العمري وهو متروك، لكنه عزاه إلى الطبراني من عدة طرق؛ وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٢٨١٨).

(٣) أخرجه: البخاري في كتاب الصلح رقم (٢٦٩٣).

وعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أنَّ ناساً من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يُصلح بينهم[1].

ولعظم المصالح المترتبة على تأليف القلوب، قال ﷺ: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً)[2].

ومن أعظم شعب الإصلاح: الإصلاح بين العلماء والدعاة والجماعات والتجمّعات الإسلامية؛ لأن الفساد المترتب على تهاجرهم وتدابرهم له آثار متعدية على الدعوة والدعاة؛ ولذا كان التواصي بإصلاح ذات البين وقطع مادة النزاع والتدابر من الأوليات المهمة التي ينبغي إشاعتها وترسيخها في الأوساط العلمية والدعوية، وقد بيَّن النبي ﷺ أن الناس في هذا السبيل صنفان: مفاتيح للخير، ومفاتيح للشر، فقال عليه الصلاة والسلام: (إنَّ من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإنَّ من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه)[3].

فمفاتيح الشر: يسعون بين الدعاة بالنميمة، والتحريش بين المصلحين، ويستثيرون النزاعات والخصومات، ويستدعون الخلافات مهما دقَّت، ويُلبسون ذلك -أحياناً-

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الصلح رقم (٢٦٩٠)؛ ومسلم في كتاب الصلاة رقم (٤٢١).

(٢) أخرجه: البخاري في كتاب الصلح رقم (٢٦٩٢)؛ ومسلم في كتاب البر والصلة رقم (٢٦٠٥).. وقد اختلف العلماء في المقصود بالكذب الجائز على قولين: فالخطابي يرى جواز الكذب بقصد الإصلاح مطلقاً، والطبري يرى أن الكذب غير جائز أصلاً، وإنما الجائز هو التعريض. انظر: شرح مسلم للنووي (١٦/ ١٥٨)، وفتح الباري (٥/ ٣٠٠).

(٣) أخرجه: ابن ماجه في المقدمة رقم (٢٣٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٣٣٢).

لباس النصيحة والغيرة على الدين وأهله، وهؤلاء من أبغض الناس إلى رسول الله ﷺ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إنَّ أبغضكم إليَّ المشاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة، الملتمسون للبُراء العنت)[1].

ومفاتيح الخير: هم الذين يستجيبون لأمر الله -تعالى- بالإصلاح، ويهتدون بهدي النبي ﷺ في حرصه على المحبة وأواصر الأخوة ووحدة الكلمة وتأليف الصفوف.

شتان شتان بين من يكون معول هدم يخرق سفينة الدعاة ويشرخ وحدة الأمة بالقيل والقال، وإثارة الأغلوطات، والتفريق بين الأحبة؛ ومن يبني ويرص الصفوف، ويجمع شتاتها، ويصلح الله على يديه شعث الأمة!

وشتان شتان بين من يكون معول هدم يخرق سفينة الدعاة ويشرخ وحدة الأمة بالقيل والقال، وإثارة الأغلوطات، والتفريق بين الأحبة؛ ومن يبني ويرص الصفوف، ويجمع شتاتها، ويصلح الله على يديه شعث الأمة! وفي هذا الباب يقول ابن تيمية: (تعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وإصلاح ذات البين.. وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة)[2].

(١) حسنه لغيره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٢٨٤٩)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٢٤).
(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٥١)، وانظر: (٢٢/ ٢٥٤).

المعلم الثامن: تعزيز الأخلاق المؤسسة للإصلاح:

الأخلاق النبوية المؤسِّسة للإصلاح بين الدعاة كثيرة جداً، لعل من أهمها:

أولاً: السماحة:

وهي من محاسن الأخلاق التي دلَّت عليها الشريعة المطهرة، وقد ثبت عن النبي ﷺ قوله: (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى)[1]. والبيع والشراء والقضاء محل المفاصلة - غالباً - في العلاقات بين الناس، ولهذا نص عليها النبي ﷺ، لكن السماحة مطلوبة محمودة في عامة العلاقات الاجتماعية.

والسماحة تعني: السهولة ولين الجانب[2]، وهما سبيل الإصلاح والتآلف، ومقابلهما: الشح والتعنت، وتأمّل قول الله تعالى في العشرة الزوجية: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وهذه الآية عامة في كل العلاقات بين الناس، فالعبرة بعموم اللفظ، وفي شرح هذه الآية يقول الشيخ السعدي: (جبلت النفوس على الشح، وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له. فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليك، والاقتناع ببعض الحق الذي لك. فمتى وافق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل - حينئذ - عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب البيوع رقم (٢٠٧٦).

(٢) انظر: لسان العرب، مادة (سمح).

لأنه لا يرضيه إلا جميع ما له، ولا يرشى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر)[1].

وعندما تتأمل واقع الدعوة والدعاة، ستجد أنَّ من أعظم أسباب الفرقة والتنازع: ضعف السماحة، وشيوع أخلاق الشح، نسأل الله السلامة!

ثانياً: العفو:

فالعفو من أعظم أبواب الإصلاح، فمتى طهرت القلوب وسمت الأخلاق رأيت العبد يترفع عن الخصومة والانتصار للنفس، ويبادر إلى العفو والصفح، وإن أخطأ عليه الآخرون، قال الله عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقد وصفت عائشة -رضي الله عنها- خلق النبي ﷺ فقالت: (لا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح)[2].

إنَّ كثيراً من الخلافات تتجذر في الأوساط الدعوية بسبب امتلاء الصدور بالشحناء والتنافس الحزبي المذموم، واستدعاء بعض الخلافات التاريخية، واستصحاب الممارسات غير الناجحة، والعفو هو السبيل الذي يزيل الاحتقان ويطهر النفوس من حظوظها، وقد وصفه الإمام القرطبي

إنَّ كثيراً من الخلافات تتجذر في الأوساط الدعوية بسبب امتلاء الصدور بالشحناء والتنافس الحزبي المذموم، واستدعاء بعض الخلافات التاريخية، واستصحاب الممارسات غير الناجحة.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ص ٢٢٤-٢٢٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤٢/ ٢٥٦)؛ والترمذي في كتاب البر والصلة رقم (٢٠١٦)؛ وصححه الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

بقوله: (العفو عن الناس أجلُّ ضروب فعل الخير)[1]. ومما يزيد من تحفيز المرء على العفو: استشعاره للمصالح العامة، وتغليبه للآجل على العاجل.

وظاهر العفو الضعف والعجز، وهذا يدفع بعضهم للاعتزاز بالنفس والإصرار على حقوقها؛ لكن حقيقته السمو وكمال العقل والتخلق بأخلاق ذوي المروءات، وقد قال النبي ﷺ: (ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً)[2].

ثالثاً: الدفع بالتي هي أحسن:

فحين تدفع السيئة بسيئة مثلها، يزداد الخلاف وتمتلئ الصدور بالضغينة، ومن ثم تتمزق الصفوف ويتعذر الإصلاح؛ ولذا كان المنهاج القرآني الدعوة إلى الترفع عن الخصومات ودفع السيئة بالحسنة، قال الله – عز وجل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، ولأن هذا خلق عزيز فإنه لا يقوى عليه إلا الربانيون قال -تعالى-: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وهذا الخلق من أعظم أبواب الإصلاح، وتعنت بعض الأغمار لا ينبغي أن يسوق الرواد إلى الخصومات، وافتعال معارك صغيرة هامشية؛ فالعاقل يدير خلافاته مع الآخرين بحكمة وهدوء، ويجيد ترويض المخالفين بالإحسان إليهم، ويحسن تحويلهم بحسن خلقه وطيب معشره من معادين إلى أولياء مناصرين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٤/ ٢٠٧٩).

(٢) أخرجه: مسلم في كتاب الأدب رقم (٦٥٩٢).

المعلم التاسع: المبادرة إلى الوفاق:

كثير من الخلافات تتجذر في صفوف الدعاة والتجمّعات الإسلامية بسبب التعالي والمكابرة، حيث يرى أحدهم مفاسد الفرقة والاختلاف، فيحبسه كبره عن المبادرة إلى الإصلاح، ويحمّل الآخرين المسؤولية، وينتظر منهم ما لا ينتظره من نفسه! وقد وصف النبي ﷺ هذا بقوله عن المتهاجرين: (يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا)، ولهذا كانت المبادرة إلى الإصلاح من المحامد التي حثَّ عليها النبي ﷺ بقوله: (وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)[1].

ولا شك في أنَّ المبادرة إلى مدِّ يد الوفاق تتطلب قدراً من الجرأة والشجاعة؛ لأننا في بعض الأحيان نستسلم لمقررات سابقة عن الآخرين تعوق إقبالنا إليهم، وربما يجد المبادر ألواناً من التخذيل والتثبيط من بعض أصحابه، وألواناً من الصدِّ والإعراض من إخوانه، لكن من اتقى الله -تعالى-، وأخلص وجهه له سبحانه؛ لن يضره ذلك، بل سيزيده حرصاً وإصراراً على التواصل، وإيماناً بضرورة المبادرة.

ربما يجد المبادر ألواناً من التخذيل والتثبيط من بعض أصحابه، وألواناً من الصدِّ والإعراض من إخوانه، لكن من اتقى الله -تعالى-، وأخلص وجهه له سبحانه، لن يضره ذلك، بل سيزيده حرصاً وإصراراً على التواصل، وإيماناً بضرورة المبادرة.

كما أنَّ المبادرة إلى الإصلاح تتطلب سعة صدر، وتواضعاً، وتطامناً، وحرصاً على الخير، وتأمل حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله! إنَّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ. فقال: (لئن كنت كما تقول فكأنما تُسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك)[2].

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الأدب رقم (٦٠٧٧)؛ ومسلم في كتاب البر والصلة رقم (٢٥٦٠).

(٢) أخرجه: مسلم في كتاب البر والصلة رقم (٢٥٥٨)، وقوله: كأنما تسفهم الملّ، أي كأنما تطعمهم الرماد الحار.

وهذا الحديث وإن كان في صلة الأرحام؛ إلا أنَّ الصلة بين الدعاة وطلبة العلم شأنها عظيم، ومفاسد تقاطعهم كبيرة.

إن المبادرة للوفاق تعبير عن الحاجة الحقيقية إلى الطرف الآخر؛ لمضاعفة محصلة القوة الناتجة، ولمواجهة التحديات المشتركة التي تستهدف الجميع.

والمبادرة تقتضي أموراً عدة، منها:

١) التواصل الاجتماعي بين العلماء والدعاة بالسلام والزيارة والتهنئة.. ونحوها، وهذا سيعزز الأخوة ويزيل كثيراً من كوامن الجفوة، وكثيراً من الحواجز النفسية الوهمية. وإذا رأى الأتباع أشياخهم يتزاورون ويتحابون في الله فإن ذلك سيكون محلاً للاقتداء.

٢) المبادرة إلى التعاون في المشاريع الجامعة التي يتفق حولها الدعاة، لتكون جسراً لتعزيز الثقة وبناء اللحمة الدعوية.

ومن المشاريع الجامعة مثلاً: التعاون في الذبِّ عن النبي ﷺ، ونصرة القدس والمسجد الأقصى، ومواجهة المشروع الصهيوأمريكي، وتعزيز القيم والأخلاق .. ونحوها كثير جداً. وإذا كان النبي ﷺ قبل خطة المشركين التي يعظمون فيها حرمات الله، فقال في صلح الحديبية: « والذي نفسي بيده لا يسألونني خُطَّة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها»[1]؛ فكيف بالخطط التي يُعظِم فيها الإسلاميون حرمات الله؟!

٣) إغاثة المنكوب وإعانة الملهوف ونصرة الضعيف، دون أن يتأثر ذلك بالانتماءات

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الشروط رقم (٢٧٣١).

الحزبية أو المشيخية. وتأمل قول النبي ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»[1].

٤) التشاور في النوازل العامة التي يظهر أثرها على الجميع، وتنسيق الموقف العلمي والعملي إزاءها.

٥) تبادل الخبرات والمعلومات في التخصصات والاحتياجات المختلفة.

٦) المبادرة إلى شكر المحسن إذا أحسن في موقف أو مشروع أو عمل من الأعمال العلمية أو الدعوية، والتماس العذر له إذا قصر أو أخطأ.

٧) الذبُّ عن الدعاة ونصرتهم أمام هجمات المناوئين من العلمانيين وأهل الأهواء. فإذا رأى الداعية أن إخوانه ينصرونه ولا يسلمونه أو يخذلونه فإن ذلك سيكون سبباً من أسباب حفظ الودِّ والائتلاف والاجتماع، ودرء الفتن، قال -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، ورجح ابن جرير الطبري أنَّ المعنى: «إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التعاون والنصرة على الدين تكن فتنة في الأرض»[2].

وأحسب أن تعزيز الائتلاف لن يتحقق إلا بمبادرات القدوات العاملة الناصحة، وإذا تباطأ الروَّاد أو تقاصروا؛ تطاول الأقزام وأفسدوا!

---

(١) أخرجه: أبو داود في كتاب الأدب، رقم (٤٩١٨). وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٥٣٢).
(٢) تفسير الطبري: (١٠/ ٥٦).

المعلم العاشر: مسارات التواصل الدعوي:

التواصلُ الدَّعويُّ الممكنُ بين الدعاةِ ليس مساراً واحداً، بل مساراتٌ متعددةٌ تُبْنَى على بعضها، فأعلى درجاتها الاندماج والوحدة، وأدناها السلامةُ وكفُّ الأذى، وبينها مساراتٌ كثيرةٌ ممكنةٌ قابلةٌ للتطبيق، كالتنسيقِ والتكاملِ والتعاونِ، ويقابلها مسارات كثيرة تثير عوامل النزاع والفرقة وتشتيت قوة الأمة، تبدأ بالحياد السلبي -الذي يعني التقصير في النصرة والتأييد-، وتنتهي بالصراع والعداء!

وإذا لم نستطع أن نحقق الوحدة الواجبة شرعاً بين الدعاة؛ فلا يعني هذا إلغاء بقية مسارات التواصل، ففرص التعاون والشراكة كثيرة جداً. وتطوير العلاقة بين الإسلاميين للانتقال من مستوى السلامة وكف الأذى إلى المستويات الإيجابية في التواصل تحتاج إلى رغبة مشتركة من الأطراف المعنية، والحرص على تأسيس أرضية صلبة من الثقة المتبادلة، ثم بناء خطة عملية متدرجة تدفع الأطراف جميعاً إلى التعاطي الراشد مع متطلبات المرحلة، والنظر بعين متجردة تستشرف مستقبل الدعوة. وفرق كبير بين أن تدار العلاقة بين الإسلاميين والتجمعات الدعوية تحت مظلة التعاون على البر والتقوى والتنافس المحمود المحفز للعمل، أو أن تدار بعقلية الصراع والاقتتال؛ الذي يؤدي إلى البغي والجور، والتخندق في صفوف المناوئين، ويجعل الداعية ينظر إلى إخوانه على أنهم خصوم أو أعداء، وهذا بالتأكيد سيجعله يتعامل معهم بنية الإسقاط أو الإقصاء أو التهميش!

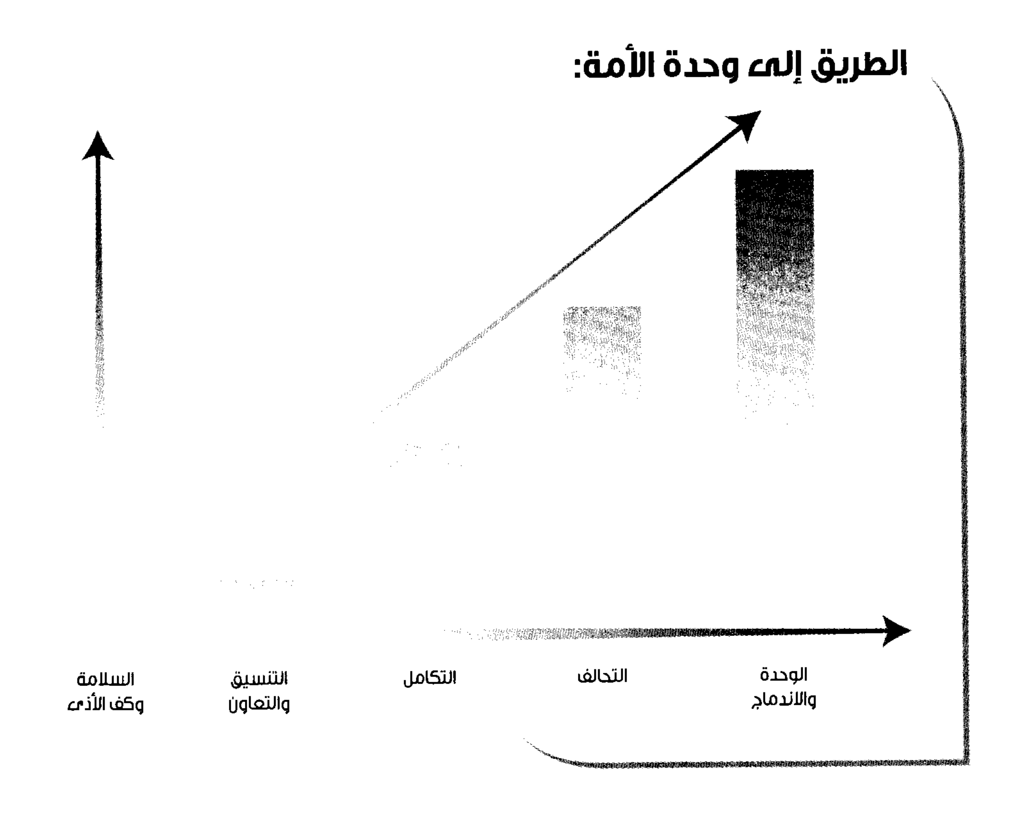
> **فرق كبير بين أن تدار العلاقة بين الإسلاميين والتجمعات الدعوية تحت مظلة التعاون على البر والتقوى والتنافس المحمود المحفز للعمل، أو أن تدار بعقلية الصراع والاقتتال.**

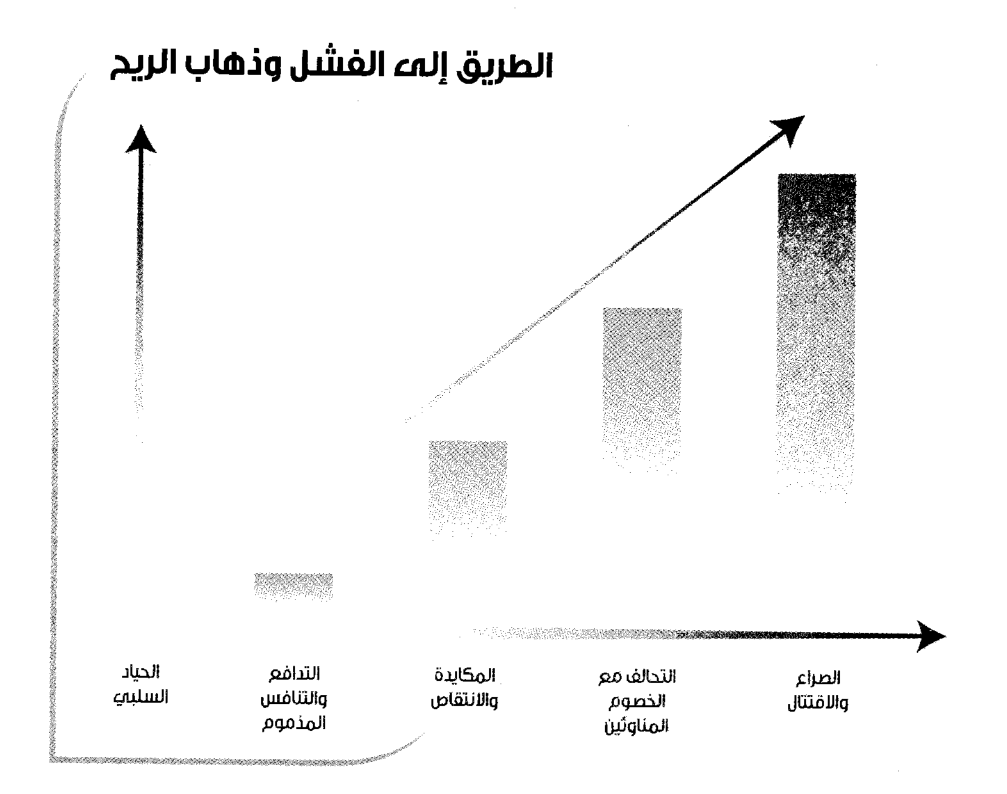
وقد رأينا في بعض الانتخابات السياسية أنَّ التنافس الحزبي يدفع بعض الإسلاميين إلى الصراع والتدافع مع إخوانهم، دون أن يلجموا ذلك بلجام من الشرع أو العقل، بينما

كان بالإمكان إدارة التنافس بروح إيجابية تكاملية تجمع ولا تفرق! والمصلحة الخاصة التي تترتب على اكتساب مقعد أو مقعدين لا توازي بحال مصلحة الاجتماع والوفاق.

إنَّ الأحداث المتتابعة التي تمر بها الأمة تؤكد أن القوة الحقيقية في مجتمعنا الإسلامي إنما هي للإسلاميين من حيث الجملة. لكننا في بعض الأحيان لا نحسن إدارة قوتنا وتجميع مواردنا وطاقاتنا؛ بل نضعفها بالتفرق، ونستهلكها بالتشتت، ونديرها بالأثرة.. فما المحصلة التي نتوقعها من ذلك؟!

الطريق إلى وحدة الأمة:




الطريق إلى الفشل وذهاب الريح
الحياد السلبي
التدافع والتنافس المذموم
المكايدة والانتقاص
التحالف مع الخصوم المناوئين
الصراع والاقتتال

الخاتمة:

إنَّ صناعة التغيير والإصلاح في المجتمعات لن يحمل لواءها إلا الربانيون من أهل العلم والدعوة، وإمامة الشعوب لن تنال بالأهواء، قال الله -تعالى- : ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وأحسب أنَّ القدرةَ على إدارةِ العلاقةِ بين الإسلاميين برؤيةٍ ناضجةٍ ترشد المسيرة الدعوية، وتخفِّفُ من حِدَّةِ الاحتقانِ وتسعى لدرءِ النزاعات؛ هي أقلُّ الواجبِ المنوطِ بأعناق الروّاد، والأمةُ التي لا تعرفُ كيف تُديرُ خلافاتها كيفَ لها أن تعرفَ طريقَ نهضتها؟!

وما أجمل قول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: « أضيع الأمم: أمة يختلف أبناؤها، فكيف بمن يختلفون كيف يختلفون»[1].

نسأل الله – عز وجل – أن يجمع قلوبنا على الطاعات، ويؤلِّف بيننا على الصالحات، ويعيذنا من الفرقة والاختلاف.

---

(١) مجلة الرسالة: العدد (٧٦).



التعاون مع أهل القبلة
«الشروط والمحاذير»

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف



ظهرتْ في العصر الحاضر مذاهب الإلحاد من شيوعية وبعثية ووجودية وليبرالية ونحوها، فانبعثتْ الصحوة الإسلامية تدافع هذه الأهواء والمقالات، وتدعو الأجيال إلى الانتماء إلى الإسلام والتمسك به، فلقد كان ظهور أولئك الزائغين من أسباب ظهور هذه الصحوة المباركة.

ثم إن هذه الصحوة ازدادت نضجاً وسداداً، فلم تكتفِ بعموم الدعوة إلى الإسلام، بل ضمّنت برامجها وأدبياتها الاعتصام بالسُّنّة، والتمسك بمنهج أهل السُّنّة والجماعة عقيدةً وسلوكاً، ثم جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وخلّفت بتداعياتها وآثارها مراجعات وتراجعات، فاختزل بعضهم همّه في الحديث عن مرونة الإسلام وسماحته وُيُسره، وانتكس آخرون فطعنوا في ثوابت الشريعة وشعائرها، وآثر البعضُ الانكفاء فاعتزلوا واقع الناس؛ إذ لم يستبن لهم سبيل التعامل مع تلك المتغيرات والأحداث.

وغابَ في زحمة الوقائع وتراكم النوازل المسلك العدل تجاه تلك القضايا، ومن هذه القضايا: سُبُل التعامل مع أهل القبلة، وحجم التعاون معهم في قضايا مشتركة سواء أكان في مواقف علمية أم عملية.

والناس إزاء هذه القضية على طرفي نقيض؛ فمنهم من ينادي بالاتحاد والالتحام مع أهل القبلة، ويطالب بطرح الفروق ونبذها، والدعوة إلى التقريب مع سائر المتسببين للإسلام بلا قيد أو شرط، ويقابلهم بعض المتسنّنة الذين لا يقيمون لهذه المسألة اهتماماً، فلم يعنوا بها بحثاً وتقريراً، فضلاً عن تحقيقها وتطبيقها.

ولعل هذه المقالة تكون لبنة في هذا الموضوع الكبير، ونرجو من أرباب الشأن أن يسهموا في هذه القضية.

فنقول ابتداءً: المراد بأهل القبلة: أهل الإسلام وإن كانوا قد تلبّسوا ببدعة أو فجور وهم المذكورون في قوله ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمّة الله وذمّة رسوله، فلا تُخْفروا الله في ذمّته»[1].

وقد يطلق عليهم وصف «الإسلاميين» أو أهل الصلاة، وكما هو ظاهرُ عنوان كتاب أبي الحسن الأشعري: «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين».

يبدو جلياً عناية أهل السُّنّة بالتعاون مع أهل القبلة على البرِّ والتقوى، وموالاتهم والقيام بحقوقهم، وفق ما جاءت به الأدلة الشرعية والمصالح المرعية.

يبدو جلياً عناية أهل السُّنّة بالتعاون مع أهل القبلة على البرِّ والتقوى، وموالاتهم والقيام بحقوقهم، وفق ما جاءت به الأدلة الشرعية والمصالح المرعية.

ومن ذلك: صلاة الجمعة والجماعة خلف كل برّ وفاجر من أهل الإسلام؛ فقد قرر أئمة أهل السُّنّة ذلك في عقائدهم، حتى قال سفيان الثوري في عقيدته: «يا شعيب! لا ينفعك حتى ترى الصلاة خلف برٍّ وفاجر»[2].

ويقول ابن تيمية: «وتجوز الصلاة خلف كل مسلم مستور باتفاق الأئمة الأربعة وسائر أئمة المسلمين»[3].

---

(١) أخرجه: البخاري، رقم (٣٩١).
(٢) أخرجه: اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنّة: (١/ ١٥٤).
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٤/ ٥٤٢).

كما بيّن أئمة السُّنّة مشروعية الصلاة على من مات من أهل القبلة، فقال قوام السُّنّة أبو القاسم الأصفهاني (ت ٥٣٤ هـ)، مقرراً لهذه المسألة: «فمن مذهبهم الصلاة على من مات من أهل القبلة»[١].

وشملت عقائد أهل السُّنّة مشروعية الجهاد في سبيل الله تعالى مع أولي الأمر من المسلمين برّهم وفاجرهم إلى قيام الساعة.

قال أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين (ت ٣٩٩ هـ): «ومن قول أهل السُّنّة أن الحج والجهاد مع كل برّ أو فاجر من أهل السُّنّة والحق، وقد فرض الله الحج فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]، وأعلمنا بفضل الجهاد في غير موضع من كتابه، وقد علم أحوال الولاة الذين لا يقوم الحج والجهاد إلا بهم، فلم يشترط ولم يبيّن، وما كان ربك نسياً»[٢].

وقد حوى تاريخ الإسلام وقائع تحكي تعاوناً بين أهل القبلة سواء كانوا فجّاراً أو مبتدعة، ومن ذلك: أن يزيد بن معاوية غزا بلاد الروم سنة تسع وأربعين من الهجرة، وبلغ قسطنطينية، وكان معه سادات الصحابة رضي الله عنهم كابن عمر، و ابن عباس، و عبد الله بن الزبير، و أبي أيوب الأنصاري[٣].

فلم يكن ظلم يزيد وجوره مانعاً لهؤلاء الصحب الكرام أن يجاهدوا معه ضد الروم النصارى.

---

(١) الحجة في بيان المحجة: (٢/ ٤٧٧).
(٢) أصول الدين لابن أبي زمنين، ص (٢٨٨).
(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير: (٨/ ٣٢).

ومن جهود أهل القبلة تجاه الكفار والمرتدين ما فعله الخليفة العباسي القادر بالله (ت ٤٢٢ هـ) في سبيل مواجهة المدّ الباطني العبيدي، إذ استفحل نفوذ العبيديين في عصر القادر بالله فنشط دعاتهم في نشر المذهب الباطني، وانتشروا في أطراف البلاد، فاتخذ القادر بالله في السنة ٤٠٢ هـ من أجل مواجهة العبيديين محضراً يتضمن الطعن في أنسابهم، ويكشف حقيقة مذهبهم، وأنهم زنادقة كفّار، وخلاصة المحضر أن الفاطميين ملوك مصر، منسوبون إلى (ديصان الخرّمي)، فليسوا من أهل البيت، وأنهم كفار ملحدون زنادقة، وللإسلام جاحدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبّوا الأنبياء، ولعنوا السلف[1].

وقد كُتِب هذا المحضر، وأقرّه جمع من الأشراف والقضاة والفقهاء والعدول.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «قد علم أن جمهور الأمة تطعن في نسبهم، ويذكرون أنهم من أولاد المجوس أو اليهود، هذا مشهور من شهادة علماء الطوائف من الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة، وأهل الحديث، وأهل الكلام، وعلماء النسب، والعامة، وغيرهم»، إلى أن قال: «وهؤلاء بنو عبيد القداح ما زالت علماء الأمة المأمونون علماً وديناً يقدحون في نسبهم ودينهم..»[2].

كما أن جهود الخليفة القادر بالله ضد الباطنية شجعت علماء الإسلام في الرد على الباطنية، فكتب (الباقلاني الأشعري): «كشف الأسرار وهتك الأستار» وبيّن

---

(١) انظر: المنتظم لابن الجوزي: (١٥/ ٨٢-٨٣)، والبداية لابن كثير: (١١/ ٣٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى: (٣٥/ ١٢٨-١٣١) باختصار.

فيه قبائحهم، كما صنف (علي بن سعيد الاصطخري) أحد شيوخ المعتزلة للقادر بالله كتاب«الرد على الباطنية» فأجرى عليه جراية سنية[1].

وبالجملة: فتاريخ الإسلام حافلٌ بجهود متعددة لعلماء الإسلام تجاه النوازل والوقائع المشتركة، مثل: جهاد أهل الإسلام ضد الصليبيين والتتار ونحوهم، والاهتمام بتميّز المجتمع الإسلامي وحفظ خصائصه، وذلك من خلال التحذير من التشبه بالكفار، وإقامة الشروط العُمَرية على أهل الذمّة، ونحوها.

ويمكن في هذا العصر الاجتماع والتعاون مع سائر أهل القبلة؛ فما أكثر القضايا التي هي محل اجتماع واتفاق بين أهل الإسلام، ومن ذلك: مواجهة الطغيان الأمريكي، ومقاومة التغريب والتفلّت الأخلاقي، ومدافعة العلمانية المتمردة، وكذا مدافعة التنصير، والاحتساب على المنظمات والمؤتمرات الدولية في مواقفها العدائية للإسلام، ومناصرة المجاهدين في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان.. إلخ.

إنّ إبراز هذه القضايا ونظائرها والقيام بها يحرِّك أهل الإسلام عموماً، ويدفعهم إلى نصرة دين الله تعالى والذبِّ عن شعائر الإسلام، وعندئذ تتسع دائرة الدعوة والإصلاح والتغيير.

كما أنّ تبني تلك القضايا المشتركة يخفف الفرقة والنزاع بين أهل الإسلام، ويحقق الألفة والأخوة الإيمانية.

---

(١) انظر: البداية لابن كثير: (١١/ ٣٤٦-٣٥٢).

وقد أشار ابن تيمية إلى ذلك بقوله: «فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة كما هو الواقع؛ فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم، وألّف بينهم، وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم، وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذّبهم الله بأن يلبسهم شيعاً، ويذيق بعضهم بأس بعض..»[1].

لكن التعاون مع أهل القبلة لا يعني أن يتخلّى أهل السُّنّة عن شيء من خصائصهم الاعتقادية والمنهجية، كما لا يعني التهاون في إنكار منكرات المبتدعة ومناصحتهم بالحجة والبرهان، كما أن المنتسبين إلى أهل القبلة ليسوا سواءً؛ فهم متفاوتون في هذا الباب، فمنهم: من لا يرجى نفعه ولا يؤمن أذاه، كالرافضة مثلاً الذين فارقوا أهل الإسلام سواء كان من جهة التلقي أو الاعتقاد، وقد كانوا مع التتار والصليبيين ضد المسلمين، ولا يزالون مع المستعمر في هذا الزمان ضد أهل الإسلام، فلا سبيل إلى التعاون مع قوم أُشربوا عبادة الأئمة وحبّ «التقيّة» وبُغْض الصحابة رضي الله عنهم.

> التعاون مع أهل القبلة لا يعني أن يتخلّى أهل السُّنّة عن شيء من خصائصهم الاعتقادية والمنهجية، كما لا يعني التهاون في إنكار منكرات المبتدعة ومناصحتهم بالحجة والبرهان، كما أن المنتسبين إلى أهل القبلة ليسوا سواءً.

ويراعى أيضاً نوعية التعامل وحجم التعاون مع طوائف أهل القبلة، فالقضايا متنوعة، والتعاون يختلف حسب النوازل والأحوال، وتقدير ذلك من أبواب السياسة الشرعية التي تتطلب فقهاً وورعاً من أهل العلم، كما تتطلب تشاوراً بين أهل الرأي حتى يُقدَّر لكل حالة قدرها.

ولا بدّ من استقراء وقائع التاريخ الماضي والحاضر، والاستفادة من التجارب

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٤٤-٤٥).

الناجحة والمتعثرة؛ فإذا كان اجتماع أهل القبلة في الردّ على العبيديين، وجهاد الصليبيين زمن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله من التجارب الرائعة والمفاخر الظاهرة؛ فإن جهاد أهل السنة ومعهم علماء المالكية في القيروان بالمغرب في السنة ٣٣٣هـ مع أبي يزيد الخارجي من التجارب الموجعة؛ فمع أن الخوارج «أصدق الناس وأوفاهم بالعهد»[١].

إلا أن أبا يزيد الخارجي أظهر الخيانة وغدر بأهل السُّنة، فإن علماء المالكية جاهدوا مع أبي يزيد الخارجي ضد العبيديين باعتبار أن الخوارج من أهل القبلة، وأما العبيديون فكفار مرتدون.. فلما خرج أولئك العلماء مع أبي يزيد الخارجي، وظهرتْ بوادر النصر على العبيديين، قال أبو يزيد لأصحابه: إذا لقيتم القوم فانكشفوا عن علماء القيروان حتى يتمكن أعداؤهم منهم، فَقُتِل جمعٌ كثير من الفقهاء والصالحين، وتغلّب العبيديون[٢].

وعلينا أن نتفطن إلى أن هذا التعامل والتعاون لا يعني تزكيةً مطلقة لأولئك الإسلاميين، أو تساهلاً في بيان أخطائهم، وأن لا يكون ذلك سبيلاً إلى تسلّطهم على أهل السُّنة أو إظهار بدعتهم بين الناس.

الاجتماع مع أهل القبلة لا يتحقق إلا باتّباع نصوص الوحيين؛ فالمصالح الوطنية أو العرقية وما أشبهها لا تورث اجتماعاً ولا تعاوناً، كما هو مشاهد ومجرّب.

وأخيراً؛ فإن الاجتماع مع أهل القبلة لا يتحقق إلا باتّباع نصوص الوحيين؛ فالمصالح الوطنية أو العرقية وما أشبهها لا تورث اجتماعاً ولا تعاوناً، كما هو مشاهد ومجرّب.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٤٨٤).

(٢) انظر تفصيل ذلك في: ترتيب المدارك للقاضي عياض: (٢/ ٢٩ـ ٣١).

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يقول: «ولست تجد اتفاقاً وائتلافاً إلا بسبب اتباع آثار الأنبياء من القرآن والحديث، وما يتبع ذلك، ولا تجد افتراقاً واختلافاً إلا عند من ترك ذلك وقدّم غيره عليه، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَـزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون، وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء قولاً وفعلاً...»[1].

(١) مجموع الفتاوى: (٤/ ٥٢).

حدود التعاون المشروع
بين الأطياف أو الأحزاب المختلفة
داخل البلد الواحد

د. هشام بن محمد برغش



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فبدايةً هذا الموضوع لا يقصد به تلك الأحزاب والأطياف ذات المرجعية الإسلامية والتي تعددت اجتهاداتها ورؤاها وبرامجها لتحقيق هدف واحد وأصيل وهو سيادة الشريعة الإسلامية وتدشين نهضة إسلامية شاملة في مجالات الحياة كافة، كما لا يقصد به أيضًا تلك الأحزاب والأطياف التي لم تتبن تلك المرجعية في برامجها وواقعها غير أنها لا تعاديها ولا تأخذ موقفًا مناوئاً لها ومحرضًا عليها، وهي في الوقت ذاته تسعى لتحقيق أهداف وطنية متفق على مشروعيتها وأهميتها في النهوض بالأمة في نواحي الحياة المختلفة، إضافة إلى دورها في محاربة الفساد والمفسدين، وليس لها أهداف وتوجهات خارجية مريبة تلبسها لبوس الوطنية والشعارات الزائفة.

أقول: لا يقصد بهذا الموضوع هذه ولا تلك باعتبار أن هذا التعاون بين هؤلاء وأولئك هو من بديهيات السياسة الشرعية وحتميات المرحلة الراهنة، وكذلك هو من طبيعة فروض الكفايات التي لا يسع كل أحد القيام بها جميعها؛ فيقوم ببعض ما يحسنه ويسعه القيام به، ويتعاون مع غيره فيما لا يحسنه أو لا يسعه القيام به.

كما أنه بدون هذا التعاون وذلك التنسيق يفتح الباب على مصراعيه لرموز الفساد وأعداء المشروع الإسلامي والوطني لتحقيق مآربهم واستنساخ الأنظمة البائدة والفاسدة التي أضاعت البلاد وأفسدت حياة العباد وعاثت في الأرض بكل صور الفساد.

بل إن مشروعية هذه الأحزاب وتلك الجماعات والأطياف المختلفة تكون محل نظر إن لم تدرك هذه الحقيقة نظريًا وتطبقها عمليًا، وينال أصحابها عندئذ نصيب وافر من قوله تعالى محذرًا من التشيع والتفرق في الدين: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

كما أنهم يتهددهم التحذير الوارد في قول النبي ﷺ لحذيفة: «فَاعْتَزِلْ تلكَ الفِرقَ كُلَّهَا»[١].

ومما لا شك فيه أن التعددية السياسية المشروعة لا تعني التشرذم، بل بينها وبين التشرذم والاحتراب السياسي بون شاسع.

إذن مقصود الحديث إنما هو عن حدود التعاون المشروع بين الأطياف صاحبة المرجعية الإسلامية، وبين تلك التي لم تعلن صراحة قبولها بهذه المرجعية ابتداء، لكنها حسنة الرأي في الإسلام والمسلمين ولا تقف موقفًا رافضًا للإسلام ومحاربًا له.

ومما لا شك فيه أن أصول الإسلام وقواعده وما تمهد من هديه ﷺ القولي والعملي تدل على أن الأصل العام في ذلك أنه لا إشكال في التعاون معهم في كل ما كان من جنس التعاون على البر والتقوى؛ من محاربة الفساد ودفعه وتقليله، ورفع الظلم أو تخفيفه، والتصدي لأنظمة القهر والاستبداد، ومناصرة لحقوق الإنسان، والسعي الحثيث

---

(١) جزء من حديث صحيح، أخرجه: البخاري، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦/ ٢٥٩٥) رقم (٦٦٧٣)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين (٣/ ١٤٧٥) رقم (١٨٤٧).

لتحقيق العدل الاجتماعي، والعمل على إحداث نهضة شاملة في المجتمع في المجالات ونواحي الحياة كافة، والتعاون في ذلك مع سائر القوى الوطنية.

فهذا تؤيده قواعد الشريعة وكلام أهل العلم؛ والأصل في ذلك كله ما تمهد في قواعد الأصول من أن مبنى الشريعة تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، واحتمال المفسدة المرجوحة تحصيلًا للمصلحة الراجحة، وأن الميسور لا يسقط بالمعسور، وأنه ما لا يدرك كله لا يترك جلُّه.

بل قد قرر العلماء في سبيل تحقيق المصالح الكلية أو دفع المفاسد الكبيرة أنه قد تجوز الإعانة على المعصية لا من جهة كونها معصية؛ بل لما تتضمنه من دفع معصية أكبر، كما ندفع الأموال إلى الكفرة نفتدي بها أسرانا من بين أيديهم، وقد أشار إلى هذا المعنى أئمة العلم من قبل[1].

ولا شك في أن صور التعاون مع هذه الأطياف كثيرة ومتعددة ومتفاوتة، ويمكن أن يتجاوز هذا التعاون مجرد التنسيق في بعض المواقف أو الاستعانة الجزئية إلى درجة التحالف مع بعض هذه القوى والكيانات تحقيقًا لمصلحة أو دفعًا لمفسدة.

ولا شك في أن صور التعاون مع هذه الأطياف كثيرة ومتعددة ومتفاوتة، ويمكن أن يتجاوز هذا التعاون مجرد التنسيق في بعض المواقف أو الاستعانة الجزئية إلى درجة التحالف مع بعض هذه القوى والكيانات تحقيقًا لمصلحة أو دفعًا لمفسدة.

وقد تحالف النبي ﷺ مع خزاعة واستعان بهم فيما هو دون القتال[2]، وهذا يعطي

---

(١) ينظر: قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام: (١/ ٨٦).

(٢) حديث تحالفه ﷺ مع خزاعة أخرجه: البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد (٩/ ٣٩٠) رقم (١٨٨٥٩) من حديث ابن إسحاق، وأصله في صحيح البخاري؛ كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب...(٣/ ١٩٣) رقم (٢٧٣١).

دلالة قوية على شرعية التحالف السياسي مع المخالفين، إذا اقتضت المصلحة ذلك، دون التخلي عن جزء من هذا الدين، فالنبي ﷺ يقبل حلف خزاعة دون شرط واحد، حيث أظهر الموقف الثابت وفق خط الإسلام، الذي لا يعين ظالمًا، وإنما ينصر المظلوم.

وتظهر شرعية التحالف السياسي في هذا الصلح من خلال بنود ميثاقه، وهي من أقوى الأدلة على مشروعيته؛ حيث جاء فيه: «أَنَّهُ مَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ -دَخَلَ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَعَقْدِهَا- دَخَلَ» حيث دخلت خزاعة حليفة لرسول الله ﷺ، وكانت تحمل كل مودة وتعاون له، وكانت خزاعة عَيبة[1] رسول الله ﷺ؛ مسلمها ومشركها، لا يخفون عليه شيئًا كان بمكة، وفي المقابل كانت تحمل كلَّ عداء لقريش[2].

قال ابن حجر: « وفيه جواز استنصاح بعض المعاهدين وأهل الذمة إذا دلت القرائن على نصحهم، وشهدت التجربة بإيثارهم أهل الإسلام على غيرهم، ولو كانوا من أهل دينهم، ويستفاد منه جواز استنصاح بعض ملوك العدو استظهارًا على غيرهم، ولا يعد ذلك من موالاة الكفار ولا موالاة أعداء الله، بل من قبيل استخدامهم وتقليل شوكة جمعهم، وإنكاء بعضهم لبعض، ولا يلزم من ذلك جواز الاستعانة بالمشركين على الإطلاق »[3].

(١) عَيبة الرجل: موضع سره، والذين يأتمنهم على أمره، ينظر: غريب الحديث، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم: (١/ ١٣٨)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن،ط١ - ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
(٢) ينظر: فتح الباري: (٥/ ٣٣٧)، ونيل الأوطار: (٨/ ١٨٨)، والاستيعاب، لابن عبد البر: (٣/ ١٤٢٨).
(٣) ينظر: فتح الباري: (٥/ ٣٣٨).

فالتحالف السياسي مع المخالفين؛ من تشكيل كتلة لخوض الانتخابات البرلمانية أو نحوها، أو تحديد موقف سياسي، أو تشكيل معارضة سياسية، أو التحالف على الإطاحة بنظام ظالم مستبد؛ فذلك مما تشهد له أصول الشريعة وقواعدها، وفق ضوابط شرعية استند إليها النبي ﷺ في تحالفاته.

وشرعية التحالف السياسي لا تقتصر على وجود دولة للمسلمين، فهو مشروع في كل مرحلة إذا اقتضت المصلحة ذلك، سواء كان بعد إقامة الدولة كتحالف النبي ﷺ مع يهود المدينة وخزاعة، أو في مرحلة الدعوة كتحالفه مع عمه أبي طالب، وشهوده لحلف الفضول، الذي أثنى عليه بعد بعثته.

وشرعية التحالف السياسي لا تقتصر على وجود دولة للمسلمين، فهو مشروع في كل مرحلة إذا اقتضت المصلحة ذلك، سواء كان بعد إقامة الدولة أو في مرحلة الدعوة.

ولا شك في أن الأمر في هذا التحالف يحتاج إلى تفصيل ومحددات وضوابط، واعتبار واقع هذه الجماعات، وطبيعة الشعوب، واختلاف الظروف المعاصرة، ومن ذلك:

- أن ما كان من هذه التحالفات على تحقيق أمر مشروع، التقت مصلحة الجميع في تحقيقه كإسقاط طاغية أذل البلاد والعباد، أو دفع صائل، أو إخراج عدو داهم بلاد المسلمين فجأة؛ فاستباح بيضتهم أو بصدد أن يفعل ذلك، ولم يتضمن التزامًا على الاتجاه الإسلامي يغل يده عن تبليغ دعوته أو إقامة دينه؛ فالأصل في هذا التحالف هو الإباحة.

- ويبقى النظر بعد ذلك في دراسة جدواه ومدى ما يمكن أن يحققه من مصلحة

أو يدفعه من مفسدة، وفي ضوء نتيجة هذه الموازنة تكون الفتوى لصالح هذا التحالف أو ضده، فهو إذن على هذا النحو مما يدور في فلك السياسة الشرعية، وتتقرر شرعيته في ضوء الموازنة بين المصالح والمفاسد والعبرة فيه لما غلب.

■ أما ما كان من هذه التحالفات على أمر غير مشروع مثل: الإعانة على الظلم، أو تدعيم نظم الجور، أو إطالة أعمار السياسات غير الإسلامية، أو إضفاء مشروعية زائفة على نظم غير مشروعة، أو إعطاء صبغة إسلامية مزورة لأعمال وممارسات لا إسلامية، أو تضمن التزامًا يضر بالمسلمين أو يغل يد الدعاة عن الصدع بالحق وإقامة الدين؛ فهذا هو التحالف الممنوع، الذي تظاهرت النصوص الجزئية والقواعد الكلية على رده[1].

ومن نافلة القول النص على عدم مشروعية التحالف مع الأحزاب العلمانية الغالية والمتطرفة التي ترفض الإسلام جملة وتفصيلًا وتحاربه.

كما يجب التأكيد على ألا تكون في هذه التحالفات مع الأحزاب العلمانية غير الغالية وغير المتطرفة؛ موالاة ولا تودد لها، ولا تكون مناصرتها من أجل إعزازها ورفع شأنها، بل من أجل رفع الظلم عن المسلمين فحسب[2].

ومن نافلة القول النص على عدم مشروعية التحالف مع الأحزاب العلمانية الغالية والمتطرفة التي ترفض الإسلام جملة وتفصيلًا وتحاربه؛ مما لا يختلف على كفرها، حيث إنه لا وجه للقول بجدوى مثل هذا التحالف

(١) ينظر: التعددية السياسية، د.صلاح الصاوي ص١٤١- ١٤٢، وهل الإسلام هو الحل؟ د. محمد عمارة ص٩٢.

(٢) ينظر: الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي، د.عبد الله الطريقي ص٢٥١.

مع مثل هذه الأحزاب؛ حيث إن هذا يتناقض ويتنافى مع ما تقرر من شروط الاستعانة بالمشركين، ـ أن يكون المستعان به مأمونًا حسن الرأي في المسلمين، أما إذا لم يكن حسن الرأي في المسلمين، لم يُستعن به؛ لأن ما يخشى من ضرره أكثر مما يرجى من نفعه[1].

ثم لا بد عند عقد التحالفات من التأكد من كون المسلمين أقوياء يصعب احتواؤهم أو تذويبهم، وأنهم قادرون على المحافظة على ذواتهم، فالتحالفات التي عقدها النبي ﷺ كانت شوكة المسلمين فيها ظاهرة، وهيمنة الإسلام متحققة.

ومما ينبغي استحضاره والانتباه إليه أن التحالفات التي عقدها النبي ﷺ مع الآخرين كانت لتغطية منعطف كبير في حياة الجماعة المسلمة، فتحالفه مع أبي طالب كان لحماية الدعوة والداعية، وحلفه مع اليهود في المدينة كان لحماية الدولة في بداية عهدها، وحلفه مع قريش في الحديبية كان للاعتراف بالدولة المسلمة بوصفها قوة حقيقية على مساحة الجزيرة العربية، والانطلاق بالدعوة نحو آفاق عالمية خارج الجزيرة[2].

وأخيرًا فإنه ينبغي مراعاة أن حال السعة والاختيار يختلف عن حال الشدة والاضطرار، وأن حالات القهر والاستضعاف يسع الجماعة فيها ما لا يسعها في حالة القوة والتمكين.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية: (٣٥/ ١٥٥)، والأم: (٤/ ١٧٥)، ومختصر المزني ص٢٦٩، ٢٧٠، والكافي في فقه الإمام أحمد: (٥/ ٤٧٢).

(٢) ينظر: الفكر الحركي بين الأصالة والانحراف، مصطفى الطحان، ص٣٨-٣٩، والمشاركة في الحياة السياسية في ظل أنظمة الحكم المعاصرة، د.مشير المصري ص٣١١.

مع تأكيد أن هذه الموازنات حمَّالة ذات أوجه، وأنها من دقائق الفقه وحقائقه وأغواره؛ فهي مزلة أقدام ومدحضة أفهام، ومن ثم فقد اختص بها أهل الحل والعقد من العلماء الربانيين والدعاة العاملين عند غياب الإمام الشرعي، وكذلك يرجع فيها إلى اجتهاد أهل الاجتهاد والنظر من قادة تلك الجماعات والأحزاب الإسلامية، مع الأخذ في الحسبان مجموعة من الضوابط كما تقدم.

كما ينبغي التنبه إلى أن هذه من المسائل التي يتغير مناط الحكم فيها، ومن ثم يتغير الحكم فيها تبعًا لذلك؛ لأن حكمها جاء مرتبطًا بالضرورة أو الحاجة العامة التي تنزل منزلتها، أو المنفعة الظاهرة المأمونة.

وعلى القائمين على الأمر في التيار الإسلامي ممن يقومون -بحكم مواقعهم- بهذه الاجتهادات وتنتهي إليهم مسؤولية البت فيها؛ ألا يستبدوا فيه بقرار قبل استفراغ الوسع في الشورى وطلب النصيحة من كل قادر على إسدائها من أهل العلم وأهل الخبرة.

و يجب عليهم أن يدركوا أنهم يعالجون أمرًا يحدد مستقبل العمل الإسلامي ومستقبل الأمة كلها من ورائه، ورب قرار راشد يُتخذ في هذا المجال يقفز بالعمل الإسلامي سنوات إلى الأمام، وعلى النقيض من ذلك رب قرار أهوج يجهض مسيرته ويرمي بها إلى الوراء بضعة عقود!!

وكم من مغلق لهذا الباب بالكلية، وما درى أنه يعطل على الأمة كثيرًا من المصالح

الشـرعية، وكم من فاتح لهذا الباب على مصراعيه وما درى أنه يدخل في دين الله ما ليس منه!! ويميع القضية الإسلامية ويدخلها في عالم المزايدات والمساومات.

والله عز وجل نسأل أن يجمع على الحق قلوب العلماء والدعاة، وأن يؤلف بين قلوب المسلمين وأن يجنبهم الفتن وأسباب النزاع والشقاق والفشل، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فقه الوفاق

لقد وضعت مجلة البيان من أهدافها الرئيسة منذ تأسيسها: السعي في وحدة الكلمة والتأليف بين الدعاة والمصلحين والتجمعات الدعوية قدر طاقتها، وفي هذا الكتاب جهد مكتوب على طريق سعي دؤوب مطلوب لاستنقاذ فصائل الأمة من طواحين الأزمة الناشئة عن فساد البين بين بعضها، في محاولة لردٍّ الجميع إلى المرد الأرشد، والمرجع الأوحد عند التخالف أو الاشتجار، وهو الاستعصام بالله والرد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإنابة والاستغفار.





مركز البحوث والدراسات

@/albayan31

/albayanMag

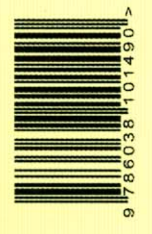
مكتب مجلة البيان

ص.ب 26970 - الرياض - 11496

www.albayan.co.uk

sales@albayan.co.uk

هاتف : 00966114546868



9786038101490